❀ ❀ ❀

# تفسير سورة النبأ

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي: عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم، يعني: الخبر الهائل المفظع الباهر. قال قتادة، وابن زيد: النبأ العظيم: البعث بعد الموت. وقال مجاهد: هو القرآن. والأظهر الأول لقوله: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر. ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾، وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد. ثم شرع تعالى يُبيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾﴾؟ أي: ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارةً ساكنة ثابتة ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ أي: جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها. ثم قال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾﴾ يعني: ذكراً وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد، والسعي في المعايش في عرض النهار. وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة «الفرقان». ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ أي: يغشى الناس ظلامه وسواده، كما قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: ٤]، وقال الشاعر:

فلمّا لَبِسْنَ الليلَ، أو حين نَصَّبَتْ له من خذا آذانها وهو جانِحُ

وقال قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ أي: سكناً. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ أي: جعلناه مشرقاً مُنيراً مضيئاً، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ يعني: السموات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ٱلْمُعْصِرَاتِ﴾ الريح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن الأعمش، عن المِنْهَال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ﴾ قال: الرياح. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، والكلبي، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: إنها الرياح. ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: من السحاب. وكذا قال عكرمة أيضاً، وأبو العالية، والضحاك، والحسن، والربيع بن أنس، والثوري. واختاره ابن جرير. وقال الفراء: هي السحاب التي تتحلّب بالمطر ولم تُمطر بعدُ، كما يقال: امرأة معصر، إذا دنا حيضها ولم تحض. وعن الحسن، وقتادة: ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ﴾ يعني: السموات. وهذا قول غريب. والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨] أي: من بينه. وقوله: ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾: قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿ثَجَّاجًا﴾: منصباً. وقا الثوري: متتابعاً. وقال ابن زيد: كثيراً. قال ابن جرير: ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج، وإنما الثج: الصب المتتابع. ومنه قول النبي ﷺ: «أفضلُ الحجّ العجّ والثجّ». يعني: صبّ دماء البُدْن. هكذا قال. قلت: وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنعت لك الكُرسُفَ» ـ يعني: أن تحتشي بالقطن ـ. قالت: يا رسول الله، هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجاً. وهذا فيه دلالة على استعمال الثّج في الصبّ المتتابع الكثير، والله أعلم. وقوله: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المُبارك ﴿حَبًّا﴾ يدخر للأناسي والأنعام، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: خضراً يؤكل رطباً، ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾. قال ابن عباس، وغيره: ﴿أَلْفَافًا﴾: مجتمعة. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ الآية [الرعد: ٤].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة، أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله ﷻ، كما قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤]. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾: قال مجاهد: زُمَراً. قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقال البخاري: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾: حدثنا محمد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون». قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيتُ». قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت». قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت». قال: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماء فينبتُون كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى، إلا عظماً واحداً، وهو عجبُ الذنب، ومنه يُركّبُ الخَلْقُ يوم القيامة». ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ أي: طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾، كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وكقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]. وقال ها هنا: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ أي: مرصدة مُعدّة، ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ وهم: المردة العصاة المخالفون للرسل، ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونُزُلاً. وقال الحسن، وقتادة في قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ يعني: أن لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس. وقال سفيان الثوري: عليها ثلاث قناطر. وقوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾

أي: ماكثين فيها أحقاباً، وهي جمع «حُقب»، وهو المدة من الزمان. وقد اختلفوا في مقداره، فقال ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن سفيان الثوري، عن عمّار الدّهني، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحُقُبَ في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وهكذا رُوي عن أبي هُريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، وسعيد بن جُبير، وعمرو بن ميمون، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والضحاك. وعن الحسن والسّدي أيضاً: سبعون سنة كذلك. وعن عبد الله بن عمرو، الحُقبُ أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون رواهما ابن أبي حاتم.

وقال بُشير بن كعب: ذُكر لي أن الحُقب الواحد ثلاثمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن عُمر بن علي بن أبي بكر الأسْفَذْني: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، قال: فالحقب ألف شهر، الشهر ثلاثون يوماً، والسنة اثنا عشر شهراً، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون، فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة. وهذا حديثٌ منكر جداً، والقاسم والراوي عنه وهو جعفر بن الزبير كلاهما متروك. وقال البزار: حدثنا محمد بن مرداس، حدثنا سليمان بن مسلم أبو المُعَلّى قال: سألت سليمان التيمي: هل يخرج من النار أحد؟ فقال: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا». قال: والحُقْب: بضع وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً مما تعدون. ثم قال: سليمان بن مسلم بصري مشهور. وقال السّدي: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾: سبعمائة حُقب، كل حُقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون. وقد قال مقاتل بن حيّان: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾. وقال خالد بن معدان: هذه الآية وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] في أهل التوحيد. رواهما ابن جرير. ثم قال: يحتمل أن يكون قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ متعلقاً بقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ونوع آخر. ثم قال: والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما قال قتادة والربيع بن أنس. وقد قال قبل ذلك: حدثني محمد بن عبد الرحيم البَرْقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن زهير، عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ قال: أما الأحقاب فليس لها عدّة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحُقب سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. وقال سعيد، عن قتادة: قال الله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ وهو: ما لا انقطاع له، وكلما مضى حُقب جاء حقب بعده، وذكر لنا أن الحُقب ثمانون سنة. وقال الربيع بن أنس: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله، ولكن الحُقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون. رواهما أيضاً ابن جرير. وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا يجدون في جهنّم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به. ولهذا قال: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾. قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق. وكذا قال الربيع بن أنس. فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه. والغسّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه. وقد قدمنا الكلام على الغساق في سورة «ص» بما أغنى عن إعادته، أجارنا الله من ذلك، بمنه وكرمه. قال ابن جرير: وقيل: المراد بقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يعني: النوم، كما قال الكندي:

بَرَدَت مراشفها عليّ فصدّني عنها وعَن قُبُلاتها، البَرْدُ

يعني بالبرد: النعاس والنوم. هكذا ذكره ولم يعزُه إلى أحد. وقد رواه ابن أبي حاتم، من طريق السدي، عن مرة الطيب. ونقله عن مجاهد أيضاً. وحكاه البغوي عن أبي عُبيدة، والكسائي أيضاً. وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا. قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد. ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله: ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل. قالوا: وقد سُمع أعرابي يستفتي الفرّاء على المروة: الحلقُ أحبّ إليك أو القصار؟ وأنشد بعضهم:

لقد طالَ ما ثبّطتني عن صَحَابَتِي وعن حوج قضاؤها من شفائيا

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: وقد علمنا أعمال العباد كلها، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك،

إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٨]. قال قتادة: عن أبي أيوب الأزدي، عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾. قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري، حدثنا خالد بن عبد الرحمن، حدثنا جسر بن فرقد، عن الحسن قال: سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾، فقال: «هلك القوم بمعاصيهم الله ﷻ».

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾. قال ابن عباس والضحاك: متنزهاً. وقال مجاهد، وقتادة: فازوا، فنجوا من النار. والأظهر ها هنا قولُ ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَآئِقَ﴾، وهي البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: حوراً كواعب. قال ابن عباس ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون أن ثُدِيَّهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرُب أتراب، أي: في سن واحدة، كما تقدم بيانه في سورة «الواقعة». قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدَّشتكيّ، حدثني أبي، عن أبي سفيان عبد الرحمن بن عبد رب بن تيم اليشكري، حدثنا عطية بن سليمان أبو الغيث، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن أبي القاسم الدمشقي، عن أبي أمامة: أنه سمعه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن قُمُص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم: يا أهل الجنة، ماذا تريدون أن أمطركم؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب». وقوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾، قال ابن عباس: مملوءة متتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد، والحسن وقتادة، وابن زيد: ﴿دِهَاقًا﴾: الملأى المترعة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هي المتتابعة. وقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾، كقوله: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣] أي: ليس فيها كلام لاغ عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل كلام فيها سالم من النقص. وقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: كافياً وافراً شاملاً كثيراً، تقول العرب: «أعطاني فأحسبني» أي: كفاني. ومنه «حسبي الله»، أي: الله كافيّ.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء. وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، اختلف المفسرون في المراد بالروح ها هنا، ما هو؟ على أقوال: أحدها: رواه العوفي، عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم. الثاني: هم بنو آدم. قاله الحسن، وقتادة، وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه. الثالث: أنهم خلق من خلق الله، على صُور بني آدم، وليس بملائكة ولا ببشر، وهم يأكلون ويشربون. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح والأعمش. الرابع: هو جبريل. قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك. ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب ﷻ، وصاحب الوحي. والخامس: أنه القرآن. قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية [الشورى: ٥٢]، والسادس: أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾، قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا رواد بن الجراح، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود قال: الروح: في السماء الرابعة هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاً وحده، وهذا قول غريب جداً. وقد قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثني عطاء، عن عبد الله بن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ملكاً لو قيل له: التقم السموات السبع وَالأرضين بلقمة واحدة، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت». وهذا حديث غريب جداً، وفي رفعه نظر، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات، والله أعلم.

وتوقَّف ابنُ جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنهم بنو آدم. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، كقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]. وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل». وقوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: حقاً، ومن الحق: «لا إله إلا الله»، كما قاله أبو صالح، وعكرمة. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكائن لا محالة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه ومنهجاً يمر به عليه. وقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آت آت. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكقوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]. ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ أي: يود الكافر يومئذٍ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خُلِقَ، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدي الملائكة السَّفَرة الكرام البررة. وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي: كنت حيواناً فأرجع إلى التراب. وقد ورد معنى هذا في حديث الصّور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما.

## آخر تفسير سورة «عم»



# (٧٨) سورة النبأ مكية وآياتها أربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾

## بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عم : أصله حرف جر دخل ما الاستفهامية ، قال حسان رحمه الله تعالى :

على ما قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى رماد

والاستعمال الكثير على الحذف والأصل قليل ، ذكروا فى سبب الحذف وجوها ( أحدها ) قال الزجاج لأن الميم تشرك الغنة فى الألف فصارا كالحرفين المتماثلين ( وثانيها ) قال الجرجانى إنهم إذا وضعوا ما فى استفهام حذفوا ألفها تفرقة بينها وبين أن تكون اسما كقولهم : فيم وبم ولم وعلام وحتام ( وثالثها ) قالوا حذفت الألف لاتصال ما بحرف الجر حتى صارت كجزء منه لتنبىء عن شدة الاتصال ( ورابعها ) السبب فى هذا الحذف التخفيف فى الكلام فإنه لفظ كثير التداول على اللسان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( عم يتساءلون ) أى سؤال ، وقوله ( عن النبأ العظيم ) جواب السائل والمجيب هو الله تعالى ، وذلك يدل على علمه بالغيب ، بل بجميع المعلومات . فإن قيل ما الفائدة فى أن يذكر الجواب معه ؟ قلنا لأن إيراد الكلام فى معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح ونظيره ( لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ عكرمة وعيسى بن عمر ( عما ) وهو الأصل ، وعن ابن كثير أنه قرأ عمه بهاء السكت ، ولا يخلو إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن يقف ويبتدىء بـ(يتساءلون عن النبأ العظيم) على أن يضمر يتساءلون لأن ما بعده يفسره كشىء مبهم ثم يفسره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (ما) لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها ، تقول ما الملك ؟ وما الروح ؟ وما الجن ؟ والمراد طلب ماهياتها وشرح حقائقها ، وذلك يقتضى كون ذلك المطلوب مجهولا . ثم إن الشىء العظيم الذى يكون لعظمه وتفاقم مرتبته ويعجز العقل عن أن يحيط بكنهه يبقى مجهولا ، فحصل بين الشىء المطلوب بلفظ ما وبين الشىء العظيم مشابهة من هذا الوجه والمشابهة إحدى أسباب المجاز ، فبهذا الطريق جعل ( ما ) دليلا على عظمة حال ذلك المطلوب وعلو رتبته

ومنه قوله تعالى ( وما أدراك ما سجين ) ، ( وما أدراك ما العقبة ) وتقوو زيد وما زيد .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل ، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به ، وإن لم يكن من بعضهم لبعض سؤال ، قال تعالى ( وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إنى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين ) فهذا يدل على معنى التحدث فيكون معنى الكلام عم يتحدثون ، وهذا قول الفراء .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أولئك الذين كانوا يتساءلون من هم ، فيه احتمالات : ( أحدها ) أنهم هم الكفار ، والدليل عليه قوله تعالى (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ) الضمير فى يتساءلون ، وهم فيه مختلفون وسيعلمون ، راجع إلى شىء واحد وقوله (كلا سيعلمون ) تهديد والتهديد لا يليق إلا بالكفار ، فثبت أن الضمير فى قوله (يتساءلون) عائد إلى الكفار ، فإن قيل فما تصنع بقوله ( هم فيه مختلفون ) مع أن الكفار كانوا متفقين فى إنكار الحشر ؟ قلنا لا نسلم أنهم كانوا متفقين فى إنكار الحشر ، وذلك لأن منهم من كان يثبت المعاد الروحانى ، وهم جمهور النصارى ، وأما المعاد الجسمانى فمنهم من كان شاكاً فيه كقوله ( وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ) ومنهم من أصر على الإنكار ، ويقول ( إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ) ومنهم من كان مقراً به ، لكنه كان منكراً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد حصل اختلافهم فيه ، وأيضاً هب أنهم كانوا منكرين له لكن لعلهم اختلفوا فى كيفية إنكاره ، فمنهم من كان ينكره لأنه كان ينكر الصانع المختار ، ومنهم من كان ينكره لاعتقاده أن إعادة المعدوم ممتنعة لذاتها والقادر المختار إنما يكون قادراً على ما يكون ممكناً فى نفسه ، وهذا هو المراد بقوله ( هم فيه مختلفون ) .

﴿ والاحتمال الثانى ﴾ أن الذين كانوا يتساءلون هم الكفار والمؤمنون ، وكانوا جميعاً يتساءلون عنه ، أما المسلم فليزداد بصيرة ويقيناً فى دينه ، وأما الكافر فعلى سبيل السخرية ، أو على سبيل إيراد الشكوك والشبهات .

﴿ والاحتمال الثالث ﴾ أنهم كانوا يسألون الرسول ، ويقولون ما هذا الذى تعدنا به من أمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ ففيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر المفسرون فى تفسير النبأ العظيم ثلاثة أوجه ( أحدها ) أنه هو القيامة وهذا هو الأقرب ويدل عليه وجوه ( أحدها ) قوله ( سيعلمون ) والظاهر أن المراد منه أنهم سيعلمون هذا الذى يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة ، ومعلوم أن ذلك هو القيامة ( وثانيها ) أنه تعالى بين كونه قادراً على جميع الممكنات بقوله ( ألم نجعل الأرض مهاداً ) إلى قوله ( يوم ينفخ فى الصور ) وذلك يقتضى أنه تعالى إنما قدم هذه المقدمة لبيان كونه تعالى قادراً

على إقامة القيامة ، ولما كان الذى أثبته الله تعالى بالدليل العقلى فى هذه السورة هو هذه المسألة ثبت أن النبأ العظيم الذى كانوا يتساءلون عنه هو يوم القيامة (وثالثها) أن العظيم اسم لهذا اليوم بدليل قوله (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين) وقوله (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) ولأن هذا اليوم أعظم الأشياء لأن ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه فكان تخصيص اسم العظيم به لائقاً (والقول الثانى) (إنه لقرآن) واحتج القائلون بهذا الوجه بأمرين (الأول) أن النبأ العظيم هو الذى كانوا يختلفون فيه وذلك هو القرآن لأن بعضهم جعله سحراً وبعضهم شعراً ، وبعضهم قال إنه أساطير الأولين ، فأما البعث ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانوا متفقين على إنكارهما وهذا ضعيف ، لأنا بينا أن الاختلاف كان حاصلا فى البعث (الثانى) أن النبأ اسم الخبر لا اسم المخبر عنه فتفسير النبأ بالقرآن أولى من تفسيره بالبعث أو النبوة ، لأن ذلك فى نفسه ليس بنبأ بل منبأ عنه ، ويقوى ذلك أن القرآن سمى ذكراً وتذكرة وذكرى وهداية وحديثاً ، فكان اسم النبأ به أليق منه بالبعث والنبوة (والجواب) عنه أنه إذا كان اسم النبأ أليق بهذه الألفاظ فاسم العظيم أليق بالقيامة وبالنبوة لأنه لاعظمة فى ألفاظ إنما العظمة فى المعانى ، وللأولين أن يقولوا إنها عظيمة أيضاً فى الفصاحة والاحتواء على العلوم الكثيرة ، ويمكن أن يجاب أن العظيم حقيقة فى الأجسام مجاز فى غيرها وإذا ثبت التعارض بقى ما ذكرنا من الدلائل سليما (القول الثالث) أن النبأ العظيم هو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا وذلك لأنه لما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام جعلوا يتساءلون بينهم ماذا الذى حدث ؟ فأنزل الله تعالى (عم يتساءلون) وذلك لأنهم عجبوا من إرسال الله محمداً عليه الصلاة والسلام إليهم كما قال تعالى (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب) وعجبوا أيضاً أن جاءهم بالتوحيد كما قال (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) فحكى الله تعالى عنهم مساءلة بعضهم بعضاً على سبيل التعجب بقوله (عم يتساءلون).

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه (أحدها) وهو قول البصريين أن قوله (عم يتساءلون) كلام تام ، ثم قال (عن النبأ العظيم) والتقدير (يتساءلون عن النبأ العظيم) إلا أنه حذف يتساءلون فى الآية الثانية ، لأن حصوله فى الآية الأولى يدل عليه (وثانيها) أن يكون قوله (عن النبأ العظيم) استفهاماً متصلا بما قبله ، والتقدير : عم يتساءلون أعن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ، إلا أنه اقتصر على ما قبله من الاستفهام إذ هو متصل به ، وكالترجمة والبيان له كما قرىء فى قوله (أئذ متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون) بكسر الألف من غير استفهام لأن إنكارهم إنما كان للبعث ، ولكنه لما ظهر الاستفهام فى أول الكلام اقتصر عليه ، فكذا ههنا (وثالثها) وهو اختيار الكوفيين أن الآية الثانية متصله بالأولى على تقدير ، لأى شىء يتساءلون عن النبأ العظيم ، وعم كأنها فى المعنى لأى شىء ، وهذا قول الفراء.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ﴾ قال القفال : كلا لفظة وضعت لرد شيء قد تقدم ، هذا هو الأظهر منها فى الكلام ، والمعنى ليس الأمر كما يقوله هؤلاء فى النبأ العظيم إنه باطل أو إنه لا يكون ، وقال قائلون كلا معناه حقا ، ثم إنه تعالى قرر ذلك الردع والتهديد ، فقال ( كلا سيعلمون ) وهو وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له ، واقع لاريب فيه ، وأما تكرير الردع ، ففيه وجهان (الأول) أن الغرض من التكرير التأكيد والتشديد ، ومعنى ثم الإشعار بأن الوعيد الثانى أبلغ من الوعيد الأول وأشد ( والثانى ) أن ذلك ليس بتكرير ، ثم ذكروا وجوهاً ( أحدها ) قال الضحاك الآية الأولى للكفار والثانية للمؤمنين أى سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم ( وثانيها ) قال القاضى : ويحتمل أن يريد بالأول سيعلمون نفس الحشر والمحاسبة ، ويريد بالثانى سيعلمون نفس العذاب إذا شاهدوه (وثالثها) (كلا سيعلمون ) ما الله فاعل بهم يوم القيامة ( ثم كلا سيعلمون ) أن الأمر ليس كما كانوا يتوهمون من أن الله غير باعث لهم ( ورابعها ) (كلا سيعلمون ) ما يصل إليهم من العذاب فى الدنيا ، كما جرى على كفار قريش يوم بدر ( ثم كلا سيعلمون ) بما ينالهم فى الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ جمهور القراء قرأوا بالياء المنقطة من تحت فى ( سيعلمون ) وروى بالتاء المنقطة من فوق عن ابن عامر . قال الواحدى : والأول أولى ، لأن ما تقدم من قوله ( هم فيه مختلفون ) على لفظ الغيبة ، والتاء على قل لهم : ستعلمون ، وأقول يمكن أن يكون ذلك على سبيل الالتفات ، وهو ههنا متمكن حسن ، كمن يقول : إن عبدى يقول كذا وكذا ، ثم يقول لعبده : إنك ستعرف وبال هذا الكلام .

قوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الارض مهاداً ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم إنكار البعث والحشر ، وأراد إقامة الدلالة على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة فى بيان كونه تعالى قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع المعلومات ، وذلك لأنه مهما ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث ، وإنما أثبت هذين الأصلين بأن عدد أنواعاً من مخلوقاته الواقعة على وجه الإحكام والإتقان ، فإن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة ، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم ، ومتى ثبت هذان الأصلان وثبت أن الأجسام متساوية فى قبول الصفات والأعراض ، ثبت لامحالة كونه تعالى قادراً على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها ، وعلى إيجاد عالم الآخرة ، فهذا هو الإشارة إلى كيفية النظم .

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا من عجائب مخلوقاته أموراً ( فأولها ) قوله ( ألم نجعل الأرض مهاداً ) والمهاد مصدر ، ثم ههنا احتمالات ( أحدها ) المراد منه ههنا الممهود ، أى ألم نجعل الأرض ممهودة

وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾

وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر ، كقولك هذا ضرب الأمير ( وثانيها ) أن تكون الأرض وصفت بهذا المصدر ، كما تقول : زيد جود وكرم وفضل ، كأنه لكماله فى تلك الصفة صار عين تلك الصفة ( وثالثها ) أن تكون بمعنى ذات مهاد ، وقرىء مهداً ، ومعناه أن الأرض للخلق كالمهد للصبى ، وهو الذى مهد له فينوم عليه .

واعلم أنا ذكرنا فى تفسير سورة البقرة عند قوله ( جعل لكم الأرض فراشاً ) كل ما يتعلق من الحقائق بهذه الآية .

( وثانيها ) قوله تعالى ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ أى للأرض [ كى ] لا تميد بأهلها ، فيكمل كون الأرض مهاداً بسبب ذلك قد تقدم أيضاً .

( وثالثها ) قوله تعالى ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ وفيه قولان ( الأول ) المراد الذكر والأنثى كما قال ( وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ) ، ( والثانى ) أن المراد منه كل زوجين و[ كل ] متقابلين من القبيح والحسن والطويل والقصير وجميع المتقابلات والأضداد ، كما قال ( ومن كل شىء خلقنا زوجين ) وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يصح الابتلاء والامتحان ، فيتعبد الفاضل بالشكر والمفضول بالصبر ويتعرف حقيقة كل شىء بضده ، فالإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب ، وإنما يعرف قدر الأمن عند الخوف ، فيكون ذلك أبلغ فى تعريف النعم .

( ورابعها ) قوله تعالى : ﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ طعن بعض الملاحدة فى هذه الآية فقالوا السبات هو النوم ، والمعنى : وجعلنا نومكم نوماً ، واعلم أن العلماء ذكروا فى التأويل وجوهاً ( أولها ) قال الزجاج ( سباتاً ) موتاً والمسبوت الميت من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة ودليله أمران ( أحدهما ) قوله تعالى ( وهو الذى يتوفاكم بالليل ) إلى قوله ( ثم يبعثكم ) ( والثانى ) أنه لما جعل النوم موتاً جعل اليقظة معاشاً ، أى حياة فى قوله ( وجعلنا النهار معاشاً ) وهذا القول عندى ضعيف لأن الأشياء المذكورة فى هذه الآية جلائل النعم ، فلا يليق الموت بهذا المكان وأيضاً ليس المراد بكونه موتاً ، أن الروح انقطع عن البدن ، بل المراد منه انقطاع أثر الحواس الظاهرة ، وهذا هو النوم ، ويصير حاصل الكلام إلى : إنا جعلنا نومكم نوماً ( وثانيها ) قال الليث السبات النوم شبه الغشى يقال سبت المريض فهو مسبوت ، وقال أبو عبيدة السبات الغشية التى تغشى الإنسان شبه الموت ، وهذا القول أيضاً ضعيف ، لأن الغشى ههنا إن كان النوم فيعود الإشكال ، وإن كان المراد بالسبات شدة ذلك الغشى فهو باطل ، لأنه ليس كل نوم كذلك ولأنه مرض فلا يمكن ذكره فى أثناء تعديد النعم ( وثالثها ) أن السبت فى أصل اللغة هو القطع يقال سبت الرجل رأسه يسبته سبتاً إذا حلق شعره ، وقال ابن الأعرابى فى قوله ( سباتاً ) أى قطعاً

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾

ثم عند هذا يحتمل وجوهاً ( الأول ) أن يكون المعنى : وجعلنا نومكم نوماً متقطعاً لا دائماً ، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء . أما دوامه فمن أضر الأشياء ، فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا جرم ذكره الله تعالى فى معرض الإنعام ( الثانى ) أن الإنسان إذا تعب ثم نام ، فذلك النوم يزيل عنه ذلك التعب ، فسميت تلك الإزالة سبتاً وقطعاً ، وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة ، ( وجعلنا نومكم سباتاً ) أى راحة ، وليس غرضه منه أن السبات اسم للراحة ، بل المقصود أن النوم يقطع التعب ويزيله ، فحينئذ تحصل الراحة ( الثالث ) قال المبرد ( وجعلنا نومكم سباتاً ) أى جعلناه نوماً خفيفاً يمكنكم دفعه وقطعه ، تقول العرب : رجل مسبوت إذا كان النوم يغالبه وهو يدافعه ، كأنه قيل : وجعلنا نومكم نوماً لطيفاً يمكنكم دفعه ، وما جعلناه غشياً مستولياً عليكم ، فإن ذلك من الأمراض الشديدة ، وهذه الوجوه كلها صحيحة .

( وخامسها ) قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ قال القفال : أصل اللباس هو الشىء الذى يلبسه الإنسان ويتغطى به ، فيكون ذلك مغطيا له ، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جعل لباساً لهم ، وهذا السبب سمى الليل لباساً على وجه المجاز ، والمراد كون الليل ساتراً لهم . وأما وجه النعمة فى ذلك ، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو ، أو بياتاً له ، أو إخفاء مالا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه ، قال المتنبى .

وكم لظلام الليل عندى من يد تخبر أن المانوية تكذب

وأيضاً فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل بسبب مايحصل فيه من النوم يزيد فى جمال الإنسان ، وفى طراوة أعضائه وفى تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسمانى ، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية ، فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة .

( وسادسها ) قوله تعالى ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ فى المعاش وجهان ( أحدهما ) أنه مصدر يقال : عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة وعيشة ، وعلى هذا التقدير فلا بد فيه من إضمار ، والمعنى وجعلنا النهار وقت معاش ( والثانى ) أن يكون معاشاً مفعلا وظرفاً للتعيش ، وعلى هذا لاحاجة إلى الإضمار ، ومعنى كون النهار معاشاً أن الخلق إنما يمكنهم التقلب فى حوائجهم ومكاسبهم فى النهار لا فى الليل .

( وسابعها ) قوله تعالى ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾ أى سبع سموات شداداً جمع شديدة

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾

يعنى محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان ، لا فطور فيها ولا فروج ، ونظيره ( وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ) فإن قيل لفظ البناء يستعمل فى أسافل البيت والسقف فى أعلاه فكيف قال (وبنينافوقكم سبعاً)؟ قلنا البناء يكون أبعد من الآفة والانحلال من السقف ، فذكر قوله ( وبنينا ) إشارة إلى أنه وإن كان سقفاً لكنه فى البعد عن الانحلال كالبناء ، فالغرض من اختيار هذا اللفظ هذه الدقيقة .

( وثامنها )قوله تعالى : ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ كلام أهل اللغة مضطرب فى تفسير الوهاج ، فمنهم من قال الوهج يجمع النور والحرارة ، فبين الله تعالى أن الشمس بالغة إلى أقصى الغايات فى هذين الوصفين ، وهو المراد بكونها وهاجاً ، وروى الكلبى عن ابن عباس أن الوهاج مبالغة فى النور فقط ، يقال للجوهر إذا تلألأ توهج ، وهذا يدل على أن الوهاج يفيد الكمال فى النور ، ومنه قول الشاعر يصف النور : نوارها متباهج يتوهج

وفى كتاب الخليل : الوهج ، حر النار والشمس ، وهذا يقتضى أن الوهاج هو البالغ فى الحر واعلم أن أى هذه الوجود إذا ثبت فالمقصود حاصل .

( وتاسعها ) قوله ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ أما المعصرات ففيها قولان ( الأول ) وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ، وقول مجاهد ، ومقاتل والكلبى وقتادة إنها الرياح التى تثير السحاب ودليله قوله تعالى ( الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً ) فإن قيل على هذا التأويل كان ينبغى أن يقال وأنزلنا بالمعصرات ، قلنا ( الجواب ) من وجهين ( الأول ) أن المطر إنما ينزل من السحاب ، والسحاب إنما يثيره الرياح ، فصح أن يقال هذا المطر إنما حصل من تلك الرياح ، كما يقال هذا من فلان ، أى من جهته وبسببه ( الثانى ) أن من ههنا بمعنى الباء والتقدير ، وأنزلنا بالمعصرات أى بالرياح المثيرة للسحاب ويروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعكرمة أنهم قرأوا ( وأنزلنا بالمعصرات ) وطعن الأزهرى فى هذا القول ، وقال الأعاصير من الرياح ليست من رياح المطر ، وقد وصف الله تعالى المعصرات بالماء الثجاج ( وجوابه ) أن الإعصار ليست من رياح المطر ، فلم لا يجوز أن تكون المعصرات من رياح المطر ؟ ( القول الثانى ) وهو الرواية الثانية عن ابن عباس واختيار أبى العالية والربيع والضحاك أنها السحاب ، وذكروا فى تسمية السحاب بالمعصرات وجوهاً ( أحدها ) قال المؤرج : المعصرات السحائب بلغة قريش ( وثانيها ) قال المازنى يجوز أن تكون المعصرات هى السحائب ذوات الأعاصير فإن السحائب إذا عصرتها الأعاصير لابد وأن ينزل المطر منها ( وثالثها ) أن المعصرات هى السحائب التى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك أجز الزرع إذا حان له أن يجز ،

لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا



ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض ، وأما الثجاج فاعلم أن الثج شدة الانصباب يقال مطر ثجاج ودم ثجاج أى شديد الانصباب .

واعلم أن الثج قد يكون لازماً ، وهو بمعنى الانصباب كما ذكرنا ، وقد يكون متعدياً بمعنى الصب وفى الحديث «أفضل الحج العج والثج» أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وكان ابن عباس مثجاً أى يثج الكلام ثجاً فى خطبته وقد فسروا الثجاج فى هذه الآية على الوجهين ، وقال الكلبي ومقاتل وقتادة الثجاج ههنا المتدفق المنصب ، وقال الزجاج معناه الصباب كأنه يثج نفسه أى يصب ، وبالجملة فالمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به .

قوله تعالى : ﴿ لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كل شيء نبت من الأرض فإما أن لايكون له ساق وإما أن يكون ، فإن لم يكن له ساق فإما أن يكون له أكمام وهو الحب وإما أن لايكون له أكمام وهو الحشيش وهو المراد ههنا بقوله ( ونباتاً ) وإلى هذين القسمين الإشارة بقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم ) وأما الذى له ساق فهو الشجر فاذا اجتمع منها شيء كثير سميت جنة ، فثبت بالدليل العقلى انحصار ما ينبت فى الأرض فى هذه الأقسام الثلاثة ، وإنما قدم الله تعالى الحب لأنه هو الأصل فى الغذاء ، وإنما ثنى بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات إليه ، وإنما أخر الجنات فى الذكر لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى ألفافاً ، فذكر صاحب الكشاف أنه لا واحد له كالأوزاع والأخياف ، والأوزاع الجماعات المتفرقة والأخياف الجماعات المختلطة . وكثير من اللغويين أثبتوا له واحداً ، ثم اختلفوا فيه ، فقال الأخفش والكسائى واحدها لف بالكسر ، وزاد الكسائى لف بالضم ، وأنكر المبرد الضم ، وقال بل واحدها لفاء وجمعها لف ، وجمع لف ألفاف ، وقيل يحتمل أن يكون جمع لفيف كشريف وأشراف نقله القفال رحمه الله ، إذا عرفت هذا فنقول قوله ( وجنات ألفافاً ) أى ملتفة ، والمعنى أن كل جنة فإن مافيها من الشجر تكون مجتمعة متقاربة ، ألا تراهم يقولون امرأة لفاء إذا كانت غليظة الساق مجتمعة اللحم يبلغ من تقاربه أن يتلاصق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كان الكعبى من القائلين بالطبائع ، فاحتج بقوله تعالى ( لنخرج به حباً ونباتاً وقال إنه يدل على بطلان قول من قال إن الله تعالى لايفعل شيئاً بواسطة شيء آخر .

قوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ .

يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾

اعلم أن التسعة التى عددها الله تعالى نظراً إلى حدوثها فى ذواتها وصفاتها ، ونظراً إلى إمكانها فى ذواتها وصفاتها تدل على القادر المختار ، ونظراً إلى ما فيها من الإحكام والإتقان تدل على أن فاعلها عالم ، ثم إن ذلك الفاعل القديم يجب أن يكون علمه وقدرته واجبين ، إذ لو كانا جائزين لافتقر إلى فاعل آخر ويلزم التسلسل وهو محال ، وإذا كان العلم والقدرة واجبين وجب تعلقهما بكل ما صح أن يكون مقدوراً ومعلوماً وإلا لا فتقر إلى المخصص وهو محال ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع المعلومات ، وقد ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة فى الجسمية فكل ما صح على واحد منها صح على الآخر ، فكما يصح على الأجسام السلفية الانشقاق والانفطار والظلمة وجب أن يصح ذلك على الأجسام ، وإذا ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة والعلم ، ثبت أنه تعالى قادر على تخريب الدنيا ، وقادر على إيجاد عالم آخر ، وعند ذلك ثبت أن القول بقيام القيامة ممكن عقلا وإلى ههنا يمكن إثباته بالعقل ، فأما ما وراء ذلك من وقت حدوثها وكيفية حدوثها فلا سبيل إليه إلا بالسمع ، ثم إنه تعالى تكلم فى هذه الأشياء بقوله ( إن يوم الفصل كان ميقاتاً ) ثم إنه تعالى ذكر بعض أحوال القيامة ( فأولها ) قوله ( إن يوم الفصل كان ميقاتاً ) والمعنى أن هذا اليوم كان فى تقدير الله ، وحكمه حداً تؤقت به الدنيا ، أو حداً للخلائق ينتهون إليه ، أو كان ميقاتاً لما وعد الله من الثواب والعقاب ، أو كان ميقاتاً لاجتماع كل الخلائق فى فصل الحكومات وقطع الخصومات .

( وثانيها ) قوله تعالى ﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾ .

اعلم أن ( يوم ينفخ ) بدل من يوم الفصل ، أو عطف بيان ، وهذا النفخ هو النفخة الأخيرة التى عندها يكون الحشر ، والنفخ فى الصور فيه قولان ( أحدهما ) أن الصور جمع الصورة ، فالنفخ فى الصور عبارة عن نفخ الأرواح فى الأجساد ( والثانى ) أن الصور عبارة عن قرن ينفخ فيه . وتمام الكلام فى الصور وما قيل فيه قد تقدم فى سورة الزمر ، وقوله ( فتأتون أفواجا ) معناه أنهم يأتون ذلك المقام فوجاً فوجاً حتى يتكامل اجتماعهم . قال عطاء كل نبى يأتى مع أمته ، ونظيره قوله تعالى ( يوم ندعو كل أناس بإمامهم ) وقيل جماعات مختلفة . روى صاحب الكشاف عن معاذ أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال عليه السلام : يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : يحشر عشرة أصناف من أمتى بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمى ، وبعضهم صم بكم ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهى مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم

وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم . فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس . وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت . وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا ، وأما العمى فالذين يجورون فى الحكم ، وأما الصم والبكم فالمعجبون بأعمالهم ، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران وأما المصلبون على جذوع من النار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله تعالى من أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء .

( وثالثها ) قوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ .

قرأ عاصم وحمزة والكسائى فتحت خفيفة والباقون بالتثقيل والمعنى كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة قال القاضى وهذا الفتح هو معنى قوله ( إذا السماء انشقت ، وإذا السماء انفطرت ) إذ الفتح والتشقق والتفطر ، تتقارب ، وأقول هذا ليس بقوى لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقق والتفطر ، فربما كانت السماء أبواباً ، ثم تفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل فى جرم السماء تشقق ولا تفطر ، بل الدلائل السمعية دلت على أن عند حصول فتح هذه الأبواب يحصل التشقق والتفطر والفناء بالكلية ، فان قيل قوله ( وفتحت السماء فكانت أبواباً ) يفيد أن السماء بكليتها تصير أبواباً ، فكيف يعقل ذلك ؟ قلنا فيه وجوه : ( أحدها ) أن تلك الأبواب لما كثرت جداً صارت كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة كقوله ( وفجرنا الأرض عيوناً ) أى كأن كلها صارت عيوناً تتفجر ( وثانيها ) قال الواحدى هذا من باب تقدير حذف المضاف ، والتقدير فكانت ذات أبواب ( وثالثها ) أن الضمير فى قوله ( فكانت أبواباً ) عائد إلى مضمر والتقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً لنزول الملائكة ، كما قال تعالى ( وجاء ربك والملك صفاً صفاً ) .

( ورابعها ) قوله تعالى ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ .

اعلم أن الله تعالى ذكر فى مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة ، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله ، وهو أن أول أحوالها الاندكاك وهو قوله ( وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ) .

﴿ والحالة الثانية لها ﴾ أن تصير ( كالعهن المنفوش ) وذكر الله تعالى ذلك فى قوله ( يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ) وقوله ( يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ) .

﴿ والحالة الثالثة ﴾ أن تصير كالهباء وذلك أن تنقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾

( إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباءاً منبثاً ) .

﴿ والحالة الرابعة ﴾ أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة فى مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها وهو المراد من قوله ( فقل ينسفها ربى نسفاً ) .

﴿ والحالة الخامسة ﴾ أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً فى الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساما جامدة وهى الحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها [صيرها] مندكة متفتتة ، وهى قوله ( تمر مر السحاب ) ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره ، فقال ( ويوم نسير الجبال ، وترى الأرض بارزة ) .

﴿ الحالة السادسة ﴾ أن تصير سرابا ، بمعنى لا شىء ، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً ، كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجده شيئاً والله أعلم .

واعلم أن الأحوال المذكورة إلى ههنا هى : أحوال عامة ، ومن ههنا يصف أهوال جهنم وأحوالها .

فأولها قوله تعالى ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن يعمر : أن جهنم بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة ، بأن جهنم كانت مرصاداً للطاغين ، كأنه قيل كان كذلك لإقامة الجزاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كانت مرصاداً ، أى فى علم الله تعالى ، وقيل صارت ، وهذان القولان نقلهما القفال رحمه الله تعالى ، وفيه وجه ثالث ذكره القاضى ، فإنا إذا فسرنا المرصاد بالمرتقب ، أفاد ذلك أن جهنم كانت كالمنتظرة لقدومهم من قديم الزمان ، وكالمستدعية والطالبة لهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى المرصاد قولان ( أحدهما ) أن المرصاد اسم المكان الذى يرصد فيه ، كالمضمار اسم للمكان الذى يضمر فيه الخيل ، والمنهاج اسم للمكان الذى ينهج فيه ، وعلى هذا الوجه فيه احتمالان ( أحدهما ) أن خزنة جهنم يرصدون الكفار ( والثانى ) أن مجاز المؤمنين وممرهم كان على جهنم ، لقوله ( وإن منكم إلا واردها ) فخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عند جهنم ، ويرصدونهم عندها .

﴿ القول الثانى ﴾ أن المرصاد مفعال من الرصد ، وهو الترقب ، بمعنى أن ذلك يكثر منه ، والمفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار والمطعان ، قيل إنها ترصد أعداء الله وتشق عليهم ، كما قال تعالى ( تكاد تميز من الغيظ ) قيل ترصد كل كافر ومنافق ، والقائلون بالقول الأول استدلوا على صحة قولهم بقوله تعالى ( إن ربك لبالمرصاد ) ولو كان المرصاد نعتاً لوجب أن يقال : إن ربك لمرصاد .

لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾

﴿ المسألة الرابعة ﴾ دلت الآية على أن جهنم كانت مخلوقة لقوله تعالى (إن جهنم كانت مرصاداً) أى معدة، وإذا كان كذلك كانت الجنة أيضاً كذلك، لأنه لا قائل بالفرق.

(وثانيها) قوله ﴿للطاغين مآبا﴾ وفيه وجهان: إن قلنا إنه مرصاد للكفار فقط كان قوله (للطاغين) من تمام ما قبله، والتقدير إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين، ثم قوله (مآبا) بدل من قوله (مرصاداً) وإن قلنا بأنها كانت مرصاداً مطلقاً للكفار والمؤمنين، كان قوله (إن جهنم كانت مرصاداً) كلاماً تاماً، وقوله (للطاغين مآبا) كلام مبتدأ كأنه قيل إن جهنم مرصاد للكل، ومآب للطاغين خاصة، ومن ذهب إلى القول الأول لم يقف على قوله مرصادا أما من ذهب إلى القول الثانى وقف عليه، ثم يقول المراد بالطاغين من تكبر على ربه وطغى فى مخالفته ومعارضته، وقوله (مآبا) أى مصيراً ومقراً.

(وثالثها) قوله ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ اعلم أنه تعالى لما بين أن جهنم مآب للطاغين، وبين كمية استقرارهم هناك، فقال (لابثين فيها أحقاباً) وههنا مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ الجمهور (لابثين) وقرأ حمزة لبثين وفيه وجهان قال الفراء هما بمعنى واحد يقال لابث ولبث، مثل طامع. وطمع، وفاره، وفره، وهو كثير، وقال صاحب الكشاف واللبث أقوى لأن اللابث من وجد منه اللبث، ولا يقال لبث إلا لمن شأنه اللبث، وهو أن يستقر فى المكان، ولا يكاد ينفك عنه.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء أصل الحقب من الترادف، والتتابع يقال أحقب، إذا أردف ومنه الحقيبة ومنه كل من حمل وزراً، فقد احتقب، فيجوز على هذا المعنى (لابثين فيها أحقاباً) أى دهوراً متتابعة يتبع بعضها بعضاً، ويدل عليه قوله تعالى (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً) يحتمل سنين متتابعة إلى أن أبلغ أو آنس، واعلم أن الأحقاب، واحدها حقب وهو ثمانون سنة عند أهل اللغة، والحقب السنون واحدتها حقبة وهى زمان من الدهر لا وقت له ثم نقل عن المفسرين فيه وجوه (أحدها) قال عطاء والكلبى ومقاتل عن ابن عباس فى قوله (أحقاباً) الحقب الواحد بضع وثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا، ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعاً (وثانيها) سأل هلال الهجرى علياً عليه السلام. فقال الحقب مائة سنة، والسنة اثنا عشراً شهراً، والشهر ثلاثون يوماً، واليوم ألف سنة (وثالثها) قال الحسن الأحقاب لا يدرى أحد ما هى، ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة اليوم منها كألف سنة مما تعدون (فإن قيل) قوله أحقاباً وإن طالت إلا أنها متناهية، وعذاب أهل النار غير متناه، بل لو قال لابثين فيها الأحقاب لم يكن هذا السؤال وارداً، ونظير هذا السؤال قوله

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾

فى أهل القبلة ( إلا ما شاء ربك ) قلنا ( الجواب ) من وجوه ( الأول ) أن لفظ الأحقاب لا يدل على مضى حقب له نهاية وإنما الحقب الواحد متناه ، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً كلما مضى حقب تبعه حقب آخر ، وهكذا إلى الأبد ( والثانى ) قال الزجاج : المعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً لايذوقون فى الأحقاب برداً ولا شراباً ، فهذه الأحقاب توقيت لنوع من العذاب ، وهو أن لايذوقوا برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، ثم يبدلون بعد الأحقاب عن الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب ( وثالثها ) هب أن قوله ( أحقاباً ) يفيد التناهى ، لكن دلالة هذا على الخروج دلالة المفهوم ، والمنطوق دل على أنهم لا يخرجون . قال تعالى ( يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ) ولا شك أن المنطوق راجح ، وذكر صاحب الكشاف فى الآية وجهاً آخر ، وهو أن يكون أحقاباً من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره ، وحقب فلان إذا أخطأه الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب . فينتصب حالا عنهم بمعنى لابثين فيها حقبين مجدبين ، وقوله ( لايذوقون فيها برداً ولا شراباً ) تفسير له .

( ورابعها ) قوله تعالى :﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميما وغساقاً ، جزاءاً وفاقاً﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن اخترنا قول الزجاج كان قوله ( لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ) متصلا بما قبله ، والضمير فى قوله (فيها) عائداً إلى الأحقاب ، وإن لم نقل به كان هذا كلاماً مستأنفاً مبتدأ ، والضمير فى قوله عائداً إلى جهنم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله ( برداً ) وجهان ( الأول ) أنه البرد المعروف ، والمراد أنهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شراباً يسكن عطشهم ، ويزيل الحرقة عن بواطنهم ، والحاصل أنهم لا يجدون هواء بارداً ، ولا ماء بارداً ( والثانى ) البرد ههنا النوم ، وهو قول الأخفش والكسائى والفراء وقطرب والعتبى ، قال الفراء : وإنما سمى النوم برداً لأنه يبرد صاحبه ، فإن العطشان ينام فيبرد بالنوم ، وأنشد أبو عبيدة والمبرد فى بيان أن المراد النوم قول الشاعر :

بردت مراشفها على فصدنى عنها وعن رشفاتها البرد

يعنى النوم ، قال المبرد : ومن أمثال العرب : منع البرد البرد أى أصابنى من البرد ما منعنى من النوم ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة ، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب ، والقائلون بالقول الثانى تمسكوا فى إثباته بوجهين ( الأول ) أنه لا يقال ذقت البرد ويقال ذقت النوم ( الثانى ) أنهم يذوقون برد الزمهرير ، فلا يصح أن يقال إنهم ما ذاقوا

برداً ، وهب أن ذلك البرد برد تأذوا به ، ولكن كيف كان ، فقد ذاقوا البرد (والجواب عن الأول) كما أن ذوق البرد مجاز فكذا ذوق النوم أيضاً مجاز ، ولأن المراد من قوله (لا يذوقون فيها برداً) أى لا يستنشقون فيها نفساً بارداً ، ولا هواء بارداً ، والهواء المستنشق يمره الفم والألف لجاز إطلاق لفظ الذوق عليه (والجواب عن الثانى) أنه لم يقل لا يذوقون فيها البرد بل قال لا يذوقون فيها برداً واحداً ، وهو البرد الذى ينتفعون به ويستريحون إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى الحميم أنه الصفر المذاب وهو باطل بل الحميم الماء الحار المغلى جداً

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكروا فى الغساق وجوهاً .

(أحدها) قال أبو معاذ كنت أسمع مشايخنا يقولون الغساق فارسية معربة يقولون للشىء الذى يتقذرونه خاشاك (١) (وثانيها) أن الغساق هو الشىء البارد الذى لا يطاق ، وهو الذى يسمى بالزمهرير (وثالثها) الغساق ما يسيل من أعين أهل النار وجلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات المستقذرة ، وفى كتاب الخليل غسقت عينه ، تغسق غسقاً وغساقا (ورابعها) الغساق هو المنتن ، ودليله ما روى أنه عليه السلام قال ، لو أن دلواً من الغساق يهراق على الدنيا لأنتن أهل الدنيا (وخامسها) أن الغاسق هو المظلم قال تعالى (ومن غاسق إذا وقب) فيكون الغساق شراباً أسود مكروهاً يستوحش كما يستوحش الشىء المظلم ، إذا عرفت هذا فنقول إن فسرنا الغساق بالبارد كان التقدير : لا يذوقون فيها برداً إلا غساقاً ولا شراباً إلا حميماً ، إلا أنهما جمعا لأجل انتظام الآى ، ومثله من الشعر قول امرىء القيس .

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

والمعنى كأن قلوب الطير رطباً العناب ويابساً الحشف البالى . أما إن فسرنا الغساق بالصديد أو بالمنتن احتمل أن يكون الاستثناء بالحميم والغساق راجعاً إلى البرد والشراب معاً ، وأن يكون مختصا بالشراب فقط .

(أما الاحتمال الأول) فهو أن يكون التقدير لا يذوقون فيها شراباً إلا الحميم البالغ فى الحميم والصديد المنتن .

(وأما الاحتمال الثانى) فهو أن يكون التقدير لا يذوقون فيها شراباً إلا الحميم البالغ فى فى السخونة أو الصديد المنتن والله أعلم بمراده ، فإن قيل الصديد لا يشرب فكيف استثنى من الشراب ؟ قلنا إنه مائع فأ مكن أن يشرب فى الجملة فإن ثبت أنه غير ممكن كان ذلك استثناء من غير الجنس ووجهه معلوم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم من رواية حفص عنه غساقاً بالتشديد فكأنه فعال بمعنى سيال ، وقرأ الباقون بالتخفيف مثل شراب والأول نعت والثانى اسم .

واعلم أنه تعالى لما شرح أنواع عقوبة الكفار بين فيما بعده أنه (جزاء وفاقاً) وفى المعنى

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾

وجهان : ( الأول ) أنه تعالى أنزل بهم عقوبة شديدة بسبب أنهم أتوا بمعصية شديد فيكون العقاب ( وفاقاً ) للذنب ، ونظيره قوله تعالى ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) ( والثانى ) أنه (وفاقاً) من حيث لم يزد على قدر الاستحقاق ، ولم ينقص عنه وذكر النحويين فيه وجوهاً : ( أحدها ) أن يكون الوفاق والموافق واحداً فى اللغة والتقدير جزاء موافقاً ( وثانيها ) أن يكون نصباً على المصدر والتقدير جزاء وافق أعمالهم ( وفاقاً ) ( وثالثها ) أن يكون وصف بالمصدر كما يقال فلان فضل وكرم لكونه كاملا فى ذلك المعنى ، كذلك ههنا لما كان ذلك الجزاء كاملا فى كونه على وفق الاستحقاق وصف الجزاء بكونه ( وفاقاً ) ( ورابعها ) أن يكون بحذف المضاف والتقدير جزاء ذا وفاق وقرأ أبو حيوة ( وفاقاً ) فعال من الوفق ، فإن قيل كيف يكون هذا العذاب البالغ فى الشدة الغير المتناهى بحسب المدة ( وفاقاً ) للاتيان بالكفر لحظة واحدة ، وأيضاً فعلى قول أهل السنة إذا كان الكفر واقعاً بخلق الله وإيجاده فكيف يكون هذا وفاقاً له ؟ وأما على مذهب المعتزلة فكان علم الله بعدم إيمانهم حاصلا ووجود إيمانهم مناف بالذات لذلك العلم فمع قيام أحد المتنافيين كان التكليف بادخال المنافى الثانى فى الوجود ممتنعاً لذاته وعينه ، ويكون تكليفاً بالجمع بين المتنافيين ، فكيف يكون مثل هذا العذاب الشديد الدائم وفاقاً لمثل هذا الجرم ؟ قلنا يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد .

واعلم أنه تعالى لما بين على الإجمال أن ذلك الجزاء كان على وفق جرمهم شرح أنواع جرائمهم ، وهى بعد ذلك نوعان :

( أولها ) قوله تعالى ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ وفيه سؤالان :

﴿ الأول ﴾ وهو أن الحساب شىء شاق على الإنسان ، والشىء الشاق لا يقال فيه إنه يرجى بل يجب أن يقال إنهم كانوا لا يخشون حساباً ( والجواب ) من وجوه ( أحدها ) قال مقاتل وكثير من المفسرين قوله لا يرجون معناه لا يخافون ، ونظيره قولهم فى تفسير قوله تعالى ( مالكم لا ترجون لله وقاراً ) ( وثانيها ) أن المؤمن لا بد وأن يرجو رحمة الله لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد على عقاب جميع المعاصى سوى الكفر ، فقوله ( إنهم كانوا لا يرجون حساباً ) إشارة إلى أنهم ما كانوا مؤمنين ( وثالثها ) أن الرجاء ههنا بمعنى التوقع لأن الراجى للشىء متوقع له إلا أن أشرف أقسام التوقع هو الرجاء فسمى الجنس باسم أشرف أنواعه ( ورابعها ) أن فى هذه الآية تنبيهاً على أن الحساب مع الله جانب الرجاء فيه أغلب من جانب الخوف ، وذلك لأن للعبد حقاً على الله تعالى بحكم الوعد فى جانب الثواب ولله تعالى حق على العبد فى جانب العقاب ، والكريم قد يسقط حق نفسه ، ولا يسقط ما كان حقاً لغيره عليه ، فلا جرم كان جانب الرجاء أقوى فى

وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾

الحساب ، فلهذا السبب ذكر الرجاء ، ولم يذكر الخوف .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن الكفار كانوا قد أتوا بأنواع من القبائح والكبائر ، فما السبب فى أن خص الله تعالى هذا النوع من الكفر بالذكر فى أول الأمر ؟ ( الجواب ) لأن رغبة الإنسان فى فعل الخيرات ، وفى ترك المحظورات ، إنما تكون بسبب أن ينتفع به فى الآخرة ، فمن أنكر الآخرة ، لم يقدم على شىء من المستحسنات ، ولم يحجم عن شىء من المنكرات ، فقوله ( إنهم كانوا لا يرجون حساباً ) تنبيه على أنهم فعلوا كل شر وتركوا كل خير .

( والنوع الثانى ) من قبائح أفعالهم قوله ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ اعلم أن للنفس الناطقة الإنسانية قوتين نظرية وعملية ، وكمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ولذلك قال ابراهيم ( رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ) ( فهب لى حكما ) إشارة إلى كمال القوة النظرية ( وألحقنى بالصالحين ) إشارة إلى كمال القوة العملية ، فههنا بين الله تعالى رداءة حالهم فى الأمرين ، أما فى القوة العملية فنبه على فسادها بقوله ( إنهم كانوا لا يرجون حساباً ) أى كانوا مقدمين على جميع القبائح والمنكرات ، وغير راغبين فى شىء من الطاعات والخيرات .

وأما فى القوة النظرية فنبه على فسادها بقوله ( وكذبوا بآياتنا كذاباً ) أى كانوا منكرين بقلوبهم للحق ومصرين على الباطل ، وإذا عرفت ما ذكرناه من التفسير ظهر أنه تعالى بين أنهم كانوا قد بلغوا فى الرداءة والفساد إلى حيث يستحيل عقلا وجود ما هو أزيد منه ، فلما كانت أفعالهم كذلك كان اللائق بها هو العقوبة العظيمة . فثبت بهذا صحة ما قدمه فى قوله ( جزاءا وفاقاً ) فما أعظم لطائف القرآن مع أن الأدوار العظيمة قد استمرت ، ولم يتنبه لها أحد ، فالحمد لله حمداً يليق بعلو شأنه وبرهانه على ما خص هذا الضعيف بمعرفة هذه الأسرار .

واعلم أن قوله تعالى ( وكذبوا بآياتنا كذاباً ) يدل على أنهم كذبوا بجميع دلائل الله تعالى فى التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن ، وذلك يدل على كمال حال القوة النظرية فى الرداءة والفساد والبعد عن سواء السبيل وقوله ( كذاباً ) أى تكذيباً وفعال من مصادر التفعيل وأنشد الزجاج :

لقد طال ماريثنى عن صحابتى وعن حوج قضاؤها من شفائنا

من قضّيت قضّاء قال الفراء وهى لغة فصيحة يمانية ونظيره خرّقت القميص خرّاقا ، وقال لى أعرابى منهم على المروة يستفتينى : الحلو أحب إليك أم العصّار ؟ وقال صاحب الكشاف كنت أفسر آية فقال بعضهم لقد فسرتها فسّاراً ما سمع به ، وقرىء بالتخفيف وفيه وجوه : ( أحدها ) أنه مصدر كَذَب بدليل قوله

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾

فصدقتها أو كذبتها والمرء ينفعه كذابه

وهو مثل قوله تعالى ( أنبتكم من الأرض نباتاً ) يعنى وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً (وثانيها) أن ينصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب (وثالثها) أن يجعل الكذاب بمعنى المكاذبة ، فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة . أو كذبوا بها مكاذبين . لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين ، وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة وقرىء أيضاً كذلك وهو جمع كاذب ، أى كذبوا بآياتنا كاذبين ، وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، يقال رجل كذاب كقولك حسان وبخال ، فيجعل صفة لمصدر كذبوا أى تكذيباً كذاباً مفرطاً كذبه ،

واعلم أنه تعالى لما بين أن فساد حالهم فى القوة العملية وفى القوة النظرية بلغ إلى أقصى الغايات وأعظم النهايات بين أن تفاصيل تلك الأحوال فى كميتها وكيفيتها معلومة له ، وقدر ما يستحق عليه من العقاب معلوم له ، فقال ﴿ وكل شىء أحصيناه كتاباً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج (كل) منصوب بفعل مضمر يفسره (أحصيناه) والمعنى : وأحصينا كل شىء وقرأ أبو السمال ، وكل بالرفع على الابتداء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( وكل شيئاً أحصيناه ) أي علمنا كل شىء كما هو علماً لا يزول ولا يتبدل ونظيره قوله تعالى ( أحصاه الله ونسوه ) واعلم أن هذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات ، واعلم أن مثل هذه الآية لا تقبل التأويل : وذلك لأنه تعالى ذكر هذا تقريراً لما ادعاه من قوله ( جزاءا وفاقاً ) كأنه تعالى يقول : أنا عالم بجميع ما فعلوه ، وعالم بجهات تلك الأفعال وأحوالها واعتباراتها التى لأجلها يحصل استحقاق الثواب والعقاب ، فلا جرم لا أوصل إليهم من العذاب إلا قدر مايكون وفاقاً لأعمالهم ، ومعلوم أن هذا القدر إنما يتم لو ثبت كونه تعالى عالماً بالجزئيات ، وإذا ثبت هذا ظهر أن كل من أنكره كان كافراً قطعاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ( أحصيناه كتاباً ) فيه وجهان ( أحدهما ) تقديره أحصيناه إحصاء ، وإنما عدل عن تلك اللفظة إلى هذه اللفظة ، لأن الكتابة هى النهاية فى قوة العلم ، ولهذا قال عليه السلام « قيدوا العلم بالكتابة » فكأنه تعالى قال : وكل شىء أحصيناه إحصاء مساوياً فى القوة والثبات والتأكد للمكتوب ، فالمراد من قوله كتاباً تأكيد ذلك الإحصاء والعلم ، واعلم أن هذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر ، فإن المكتوب يقبل الزوال ، وعلم الله بالأشياء لايقبل الزوال لأنه واجب لذاته (القول الثانى) أن يكون قوله كتاباً حالا فى معنى مكتوباً والمعنى وكل شىء أحصيناه حال كونه مكتوباً فى اللوح المحفوظ ، كقوله ( وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ) أو فى صحف الحفظة .

فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

ثم قال تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال العقاب أولا ، ثم ادعى كونه ( جزاء وفاقاً ) ثم بين تفاصيل أفعالهم القبيحة ، وظهر صحة ما ادعاه أولا من أن ذلك العقاب كان ( جزاء وفاقاً ) لا جرم أعاد ذكر العقاب ، وقوله ( فذوقوا ) والفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم ، فهذا الفاء أفاد عين فائدة قوله ( جزاء وفاقاً ) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذه الآية دالة على المبالغة فى التعذيب من وجوه ( أحدها ) قوله ( فلن نزيدكم ) وكلمة لن للتأكيد فى النفى ( وثانيها ) أنه فى قوله ( كانوا لا يرجون حساباً ) ذكرهم بالمغايبة وفى قوله ( فذوقوا ) ذكرهم على سبيل المشافهة وهذا يدل على كمال الغضب ( وثالثها ) أنه تعالى عدد وجوه العقاب ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ثم عدد فضائحهم ، ثم قال ( فذوقوا ) فكأنه تعالى أفتى وأقام الدلائل ، ثم أعاد تلك الفتوى بعينها ، وذلك يدل على المبالغة فى التعذيب قال عليه الصلاة والسلام « هذه الآية أشد ما فى القرآن على أهل النار ، كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه » بقى فى الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ أليس أنه تعالى قال فى صفة الكفار ( ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ) فهنا لما قال لهم ( فذوقوا ) فقد كلمهم ؟ ( الجواب ) قال أكثر المفسرين تقدير الآية هم فذوقوا ، ولقائل أن يقول على هذا الوجه لا يليق بذلك القائل أن يقول ( فلن نزيدكم إلا عذاباً ) بل هذا الكلام لا يليق إلا بالله ، والأقرب فى الجواب أن يقال قوله ( ولا يكلمهم ) أى ولا يكلمهم بالكلام الطيب النافع ، فان تخصيص العموم غير بعيد لاسيما عند حصول القرينة ، فان قوله ( ولا يكلمهم ) إنما ذكره لبيان أنه تعالى لا ينفعهم ولا يقيم لهم وزناً ، وذلك لا يحصل إلا من الكلام الطيب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ دلت هذه الآية على أنه تعالى يزيد فى عذاب الكافر أبداً ، فتلك الزيادة إما أن يقال إنها كانت مستحقة لهم أو غير مستحقة ، فان كانت مستحقة لهم كان تركها فى أول الأمر إحساناً ، والكريم إذا أسقط حق نفسه ، فانه لا يليق به أن يسترجعه بعد ذلك ، وأما إن كانت تلك الزيادة غير مستحقة كان إيصالها إليهم ظلماً وإنه لا يجوز على الله ( الجواب ) كما أن الشىء يؤثر بحسب خاصية ذاته ، فكذا إذا دام ازداد تأثيره بحسب ذلك الدوام ، فلا جرم كلما كان الدوام أكثر كان الايلام أكثر ، وأيضاً فتلك الزيادة مستحقة ، وتركها فى بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط ، والله علم بما أراد .

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد الأخيار وهو أمور :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾

---

(أولها) قوله تعالى: ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ أما المتقى فقد تقدم تفسيره فى مواضع كثيرة (ومفازاً) يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى فوزاً وظفراً بالبغية، ويحتمل أن يكون موضع فوز والفوز يحتمل أن يكون المراد منه فوزاً بالمطلوب، وأن يكون المراد منه فوزاً بالنجاة من العذاب، وأن يكون المراد بمجموع الأمرين، وعندى أن تفسيره بالفوز بالمطلوب أولى من تفسيره بالفوز بالنجاة من العذاب، ومن تفسيره بالفوز بمجموع الأمرين أعنى النجاة من الهلاك والوصول إلى المطلوب، وذلك لأنه تعالى فسر المفاز بما بعده وهو قوله (حدائق واعناباً) فوجب أن يكون المراد من المفاز هذا القدر. فإن قيل الخلاص من الهلاك أهم من حصول اللذة، فلم أهمل الأهم وذكر غير الأهم؟ قلنا لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز باللذة والخير. أما الفوز باللذة والخير فيستلزم الخلاص من الهلاك، فكان ذكرهذا أولى.

(وثانيها) قوله تعالى ﴿حدائق وأعناباً﴾ والحدائق جمع حديقة، وهى بستان محوط عليه. من قولهم أحدقوا به أى أحاطوا به، والتنكير فى قوله (وأعناباً) يدل على تعظيم حال تلك الأعناب.

(وثالثها) قوله تعالى ﴿وكواعب أتراباً﴾ كواعب جمع كاعب وهى النواهد التى تكعبت ثديهن وتفلكت أى يكون الثدى فى النتوء كالكعب والفلكة.

(ورابعها) قوله تعالى ﴿وكأساً دهاقاً﴾ وفى الدهاق أقوال (الأول) وهو قول أكثر أهل اللغة كأبى عبيدة والزجاج والكسائى والمبرد، و(دهاقاً) أى ممتلئة، دعا ابن عباس غلاماً له فقال: اسقنا دهاقاً، فجاء الغلام بها ملأى، فقال ابن عباس هذا هو الدهاق قال عكرمة، ربما سمعت ابن عباس يقول اسقنا وأدهق لنا (القول الثانى) دهاقاً أى متتابعة وهو قول أبى هريرة وسعيد ابن جبير ومجاهد، قال الواحدى وأصل هذا القول من قول العرب أدهقت الحجارة إدهاقاً وهو شدة تلازمها ودخول بعضها فى بعض، ذكرها الليث والمتتابع كالمتداخل (القول الثالث) يروى عن عكرمة أنه قال (دهاقاً) أى صافية، والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمع داهق، وهو خشبتان يعصر بهما، والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك: كل كأس فى القرآن فهو خمر، التقدير. وخمراً ذات دهاق، أى عصرت وصفيت بالدهاق.

(وخامسها) قوله ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾ فى الآية سؤالان:

﴿الأول﴾ الضمير فى قوله (فيها) إلى ماذا يعود؟ (الجواب) فيه قولان (الأول) أنها ترجع إلى الكأس، أى لا يجرى بينهم لغو فى الكأس التى يشربونها، وذلك لان أهل الشراب

جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

فى الدنيا يتكلمون بالباطل ، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم ، ولم يتكلموا بلغو ( والثانى ) أن الكناية ترجع إلى الجنة ، أى لا يسمعون فى الجنة شيئاً يكرهونه .

﴿ السؤال الثانى ﴾ الكذاب بالتشديد يفيد المبالغة ، فوروده فى قوله تعالى ( وكذبوا بآياتنا كذاباً ) مناسب لأنه يفيد المبالغة فى وصفهم بالكذب ، أما وروده ههنا فغير لائق ، لأن قوله ( لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ) يفيد أنهم لا يسمعون الكذب العظيم وهذا لا ينفى أنهم يسمعون الكذب القليل ، وليس مقصود الآية ذلك بل المقصود المبالغة فى أنهم لا يسمعون الكذب البتة ، والحاصل أن هذا اللفظ يفيد نفى المبالغة واللائق بالآية المبالغة فى النفى ( والجواب ) أن الكسائى قرأ الأول بالتشديد والثانى بالتخفيف ، ولعل غرضه ماقررناه فى هذا السؤال ، لأن قراءة التخفيف ههنا تفيد أنهم لا يسمعون الكذب أصلا ، لأن الكذاب بالتخفيف والكذب واحد لأن أبا على الفارسى قال كذاب مصدر كذب ككتاب مصدر كتب فإذا كان كذلك كانت القراءة بالتخفيف تفيد المبالغة فى النفى ، وقراءة التشديد فى الأول تفيد المبالغة فى الثبوت فيحصل المقصود من هذه القراءة فى الموضعين على أكمل الوجوه ، فان أخذنا بقراءة الكسائى فقد زال السؤال ، وإن أخذنا بقراءة التشديد فى الموضعين وهى قراءة الباقين ، فالعذر عنه أن قوله ( لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ) إشارة إلى ما تقدم من قوله ( وكذبوا بآياتنا كذاباً ) والمعنى أن هؤلاء السعداء لا يسمعون كلامهم المشوش الباطل الفاسد ، والحاصل أن النعم الواصلة إليهم تكون خالية عن زحمة أعدائهم وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة .

ثم إنه تعالى لما عدد أقسام نعيم أهل الجنة قال ﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ وفيه مسائل :

**﴿ المسألة الأولى ﴾** قال الزجاج المعنى جازاهم بذلك جزاء ، وكذلك عطاء لأن معنى جازاهم وأعطاهم واحد .

**﴿ المسألة الثانية ﴾** فى الآية سؤال وهو أنه تعالى جعل الشىء الواحد جزاء وعطاء ، وذلك محال لأن كونه جزاء يستدعى ثبوت الاستحقاق ، وكونه عطاء يستدعى عدم الاستحقاق والجمع بينهما متناف ( والجواب عنه ) لا يصح إلا على قولنا وهو أن ذلك الاستحقاق إنما ثبت بحكم الوعد ، لا من حيث إن الفعل يوجب الثواب على الله ، فذلك الثواب نظراً إلى الوعد المترتب على ذلك الفعل يكون جزاء ، ونظراً إلى أنه لا يجب على الله لأحد شىء يكون عطاء .

**﴿ المسألة الثالثة ﴾** قوله ( حساباً ) فيه وجوه ( الأول ) أن يكون بمعنى كافياً مأخوذ من قولهم : أعطانى ما أحسبنى أى ما كفانى ، ومنه قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى ، أى كفانى من سؤالى ، ومنه قوله :

رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

فلما حللت به ضمني ... فأولى جميلا وأعطى حسابا

أى أعطى ما كفى ( والوجه الثانى ) أن قوله حساباً مأخوذ من حسبت الشيء إذا أعددته وقدرته فقوله (عطاء حساباً) أى بقدر ما وجب له فيما وعده من الإضعاف ، لأنه تعالى قدر الجزاء على ثلاثة أوجه ، وجه منها على عشرة أضعاف ، ووجه على سبعمائة ضعف ، ووجه على مالا نهاية له ، كما قال ( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) ، ( الوجه الثالث ) وهو قول ابن قتيبة ( عطاء حساباً ) أى كثيراً وأحسبت فلانا أى أكثرت له ، قال الشاعر .

ونقفى وليد الحى إن كان جائعاً ... ونحسبه إن كان ليس بجائع

( الوجه الرابع ) أنه سبحانه يوصل الثواب الذى هو الجزاء إليهم ويوصل التفضل الذى يكون زائداً على الجزء إليهم ، ثم قال ( حساباً ) ثم يتميز الجزاء عن العطاء حال الحساب ( الوجه الخامس ) أنه تعالى لما ذكر فى وعيد أهل النار (جزاء وفاقا) ذكر فى وعد أهل الجنة جزاء عطاء حسابا أى راعيت فى ثواب أعمالكم الحساب ، لئلا يقع فى ثواب أعمالكم بخس ونقصان وتقصير والله أعلم بمراده .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ ابن قطيب ( حسابا ) بالتشديد على أن الحساب بمعنى المحسب كالدراك بمعنى المدرك ، هكذا ذكره صاحب الكشاف .

واعلم أنه تعالى لما بالغ فى وصف وعيد الكفار ووعد المتقين ، ختم الكلام فى ذلك بقوله ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رب السموات والرحمن ، فيه ثلاثة أوجه من القراءة الرفع فيهما وهو قراءة ابن كثير ونافع وأبى عمرو ، والجر فيهما وهو قراءة عاصم وعبد الله بن عامر ، والجر فى الأول مع الرفع فى الثانى ، وهو قراءة حمزة والكسائى ، وفى الرفع وجوه ( أحدها ) أن يكون رب السموات مبتدأ ، والرحمن خبره ، ثم استؤنف لا يملكون منه خطاباً ( وثانيها ) رب السموات مبتدأ ، والرحمن صفة ولا يملكون خبره ( وثالثها ) أن يضمر المبتدأ والتقدير ( هو رب السموات هو الرحمن ثم استؤنف لا يملكون ( ورابعها ) أن يكون الرحمن ولا يملكون خبرين وأما وجه الجر فعلى البدل من ربك ، وأما وجه جر الأول ، ورفع الثانى فجر الأول بالبدل من ربك ، والثانى مرفوع بكونه مبتدأ وخبره لا يملكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله ( ويملكون ) إلى من يرجع ؟ فيه ثلاثة أقوال (الأول) نقل عطاء عن ابن عباس إنه راجع إلى المشركين يريد لا يخاطب المشركون أما المؤمنون فيشفعون يقبل الله ذلك منهم ( والثانى ) قال القاضى إنه راجع إلى المؤمنين ، والمعنى أن المؤمنين لا يملكون

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾

أن يخاطبوا الله فى أمر من الأمور ، لأنه لما ثبت أنه عدل لا يجور ، ثبت أن العقاب الذى أوصله إلى إلى الكفار عدل ، وأن الثواب الذى أوصله المؤمنين عدل ، وأنه ما بخس حقهم ، فبأى سبب يخاطبونه ، وهذا القول أقرب من الأول لأن الذى جرى قبل هذه الآية ذكر المؤمنين لا ذكر الكفار (والثالث) أنه ضمير لأهل السموات والأرض ، وهذا هو الصواب ، فإن أحداً من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله ومكالمته . وأما الشفاعات الواقعة بإذنه فغير واردة على هذا الكلام لأنه نفى الملك والذى يحصل بفضله وإحسانه ، فهو غير مملوك ، فثبت أن هذا السؤال غير لازم ، والذى يدل من جهة العقل على أن أحداً من المخلوقين لا يملك خطاب الله وجوه (الأول) وهو أن كل ما سواه فهو مملوكه والمملوك لا يستحق على مالكه شيئاً ( وثانيها ) أن معنى الاستحقاق عليه ، هو أنه لو لم يفعل لاستحق الذم . ولو فعله لاستحق المدح ، وكل من كان كذلك كان ناقصاً فى ذاته ، مستكملا بغيره وتعالى الله عنه ( وثالثها ) أنه عالم بقبح القبيح ، عالم بكونه غنياً عنه ، وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح ، وكل من امتنع كونه فاعلا للقبيح ، فليس لأحد أن يطالبه بشىء ، وأن يقول له لم فعلت . والوجهان الأولان مفرعان على قول أهل السنة ، والوجه الثالث يتفرع على قول المعتزلة فثبت أن أحداً من المخلوقات لا يملك أن يخاطب ربه ويطالب إلهه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أحداً من الخلق لا يمكنه أن يخاطب الله فى شىء أو يطالبه بشىء قرر هذا المعنى ، وأكده فقال تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ .

وذلك لأن الملائكة أعظم المخلوقات قدراً ورتبة ، وأكثر قدرة ومكانة ، فبين أنهم لا يتكلمون فى موقف القيامة إجلالا لربهم وخوفاً منه وخضوعاً له ، فكيف يكون حال غيرهم . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لمن يقول بتفضيل الملك على البشر أن يتمسك بهذه الآية ، وذلك لأن المقصود من الآية أن الملائكة لما بقوا خائفين خاضعين وجلين متحيرين فى موقف جلال الله ، وظهور عزته وكبريائه ، فكيف يكون حال غيرهم ، ومعلوم أن هذا الاستدلال لا يتم إلا إذا كانوا أشرف المخلوقات ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى الروح فى هذه الآية ، فعن ابن مسعود أنه ملك أعظم من السموات والجبال . وعن ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً ، وعن مجاهد : خلق على

صورة بنى آدم يأكلون ويشربون ، وليسوا بناس ، وعن الحسن وقتادة هم بنو آدم ، وعلى هذا معناه ذو الروح ، وعن ابن عباس أرواح الناس ، وعن الضحاك والشعبى هو جبريل عليه السلام ، وهذا القول هو المختار عند القاضى . قال لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام ، وثبت أن القيام صحيح من جبريل والكلام صحيح منه ، ويصح أن يؤذن له فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه ، أو إلى القرآن الذى لا يصح وصفه بالقيام . أما قوله (صفاً) فيحتمل أن يكون المعنى أن الروح على الاختلاف الذى ذكرناه ، وجميع الملائكة يقومون صفاً واحداً ، ويجوز أن يكون المعنى يقومون صفين ، ويجوز صفوفاً ، والصف فى الأصل مصدر فينبىء عن الواحد والجمع ، وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين ، فيقوم الروح وحده صفاً ، وتقوم الملائكة كلهم صفاً واحداً ، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم ، وقال بعضهم بل يقومون صفوفاً لقوله تعالى ( وجاء ربك والملك صفاً صفاً ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الاستثناء إلى من يعود ؟ فيه قولان :

﴿ أحدهما ﴾ إلى الروح والملائكة ، وعلى هذا التقدير : الآية دلت على أن الروح والملائكة لا يتكلمون إلا عند حصول شرطين ( أحداها ) حصول الإذن من الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى ( من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ) والمعنى أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله .

﴿ والشرط الثانى ﴾ أن يقول صوابا ، فإن قيل لما أذن له الرحمن فى ذلك القول ، علم أن ذلك القول صواب لامحالة ، فما الفائدة فى قوله (وقال صوابا) ؟ والجواب من وجهين (الأول) أن الرحمن أذن له فى مطلق القول ثم إنهم عند حصول ذلك الإذن لا يتكلمون إلا بالصواب ، فكأنه قيل إنهم لا ينطلقون إلا بعد ورود الإذن فى الكلام ، ثم بعد ورود ذلك الإذن يجتهدون ، ولا يتكلمون إلا بالكلام الذى يعلمون أنه صدق وصواب ، وهذا مبالغة فى وصفهم بالطاعة والعبودية ( الوجه الثانى ) أن تقديره : لا يتكلمون إلا فى حق ( من أذن له الرحمن وقال صوابا ) والمعنى لا يشفعون إلا فى حق شخص أذن له الرحمن فى شفاعته وذلك الشخص كان ممن قال صوابا ، واحتج صاحب هذا التأويل بهذه الآية على أنهم يشفعون للمذنبين لأنهم قالوا صوابا وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، لأن قوله ( وقال صوابا ) يكفى فى صدقه أن يكون قد قال صوابا واحداً ، فكيف بالشخص الذى قال القول الذى هو أصوب الأقوال وتكلم بالكلام الذى هو أشرف الكلمات ( القول الثانى ) أن الاستثناء غير عائد إلى الملائكة فقط بل إلى جميع أهل السموات والأرض ، والقول الأول أولى لأن عود الضمير إلى الأقرب أولى .

واعلم أنه تعالى لما قرر أحول المكلفين فى درجات الثواب والعقاب ، وقرر عظمة يوم القيامة قال بعده :

ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ ذلك إشارة إلى تقدم ذكره ، وفى وصف اليوم بأنه حق وجوه ( أحدها ) أنه يحصل فيه كل الحق ، ويندمغ كل باطل ، فلما كان كاملا فى هذا المعنى قيل إنه حق ، كما يقال فلان خير كله إذا وصف بأن فيه خيراً كثيراً ، وقوله ( ذلك اليوم الحق ) يفيد أنه هو اليوم الحق وما عداه باطل ، لأن أيام الدنيا باطلها أكثر من حقها ( وثانيها ) أن الحق هو الثابت الكائن ، وبهذا المعنى يقال إن الله حق ، أى هو ثابت لا يجوز عليه الفناء ويوم القيامة كذلك فيكون حقاً ( وثالثها ) أن ذلك اليوم هو اليوم الذى يستحق أن يقال له يوم ، لأن فيه تبلى السرائر وتنكشف الضمائر ، وأما أيام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتومة ، والأحوال فيها غير معلومة .

قوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ أى مرجعاً ، والمعتزلة احتجوا به على الاختيار والمشيئة ، وأصحابنا رووا عن ابن عباس أنه قال : المراد فمن شاء الله به خيراً هداه حتى يتخذ إلى ربه مآباً ،

ثم إنه تعالى زاد فى تخويف الكفار فقال ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ يعنى العذاب فى الآخرة ، وكل ما هو آت قريب ، و[هو] كقوله تعالى ( كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ) وإنما سماه إنذاراً ، لأنه تعالى بهذا الوصف قد خوف منه نهاية التخويف وهو معنى الإنذار .

قوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما فى قوله ( ما قدمت يداه ) فيه وجهان ( الأول ) أنها استفهامية منصوبة بقدمت ، أى ينظر أى شىء قدمت يداه ( الثانى ) أن تكون بمعنى الذى وتكون منصوبة بينظر ، والتقدير : ينظر إلى الذى قدمت يداه ، إلا أن على هذا التقدير حصل فيه حذفان ( أحدهما ) أنه لم يقل قدمته ، بل قال ( قدمت ) لحذف الضمير الراجع ( الثانى ) أنه لم يقل ينظر إلى ما قدمت ، بل قال : ينظر ما قدمت ، يقال نظرته بمعنى نظرت إليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الآية ثلاثة أقوال ( الأول ) وهو الأظهر أن المرء عام فى كل أحد ، لأن المكلف إن كان قدم عمل المتقين ، فليس له إلا الثواب العظيم ، وإن كان قدم عمل الكافرين ، فليس له إلا العقاب الذى وصفه الله تعالى ، فلا رجاء لمن ورد القيامة من المكلفين فى أمر سوى هذين ، فهذا هو المراد بقوله ( يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ) فطوبى له إن قدم عمل الأبرار ، وويل له إن قدم عمل الفجار ( والقول الثانى ) وهو قول عطاء أن المرء ههنا هو الكافر ، لأن المؤمن كما ينظر إلى ما قدمت يداه ، فكذلك ينظر إلى عفو الله ورحمته ،

وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

وأما الكافر الذى لا يرى إلا العذاب ، فهو لا يرى إلا ما قدمت يداه ، لأن ما وصل إليه من العقاب ليس إلا من شؤم معاملته (والقول الثالث) وهو قول الحسن ، وقتادة أن المرء مهنا هو المؤمن ، واحتجوا عليه بوجهين (الأول) أنه تعالى قال بعد هذه الآية ، (ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً) فلما كان هذا بياناً لحال الكافر ، وجب أن يكون الأول بياناً لحال المؤمن (والثانى) وهو أن المؤمن لما قدم الخير والشر فهو من الله تعالى على خوف ورجاء ، فينتظر كيف يحدث الحال ، أما الكافر فإنه قاطع بالعقاب ، فلا يكون له انتظار أنه كيف يحدث الأمر ، فإن مع القطع لا يحصل الانتظار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القائلون بأن الخير يوجب الثواب والشر يوجب العقاب تمسكوا بهذه الآية ، فقالوا لولا أن الأمر كذلك ، وإلا لم يكن نظر الرجل فى الثواب والعقاب على عمله بل على شىء آخر (والجواب عنه) أن العمل يوجب الثواب والعقاب ، لكن بحكم الوعد والجعل لا بحكم الذات .

أما قوله تعالى ﴿ ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً ﴾ ففيه وجوه (أحدها) أن يوم القيامة ينظر المرء أى شىء قدمت يداه ، أما المؤمن فإنه يجد الإيمان والعفو عن سائر المعاصى على ما قال (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وأما الكافر فلا يتوقع العفو على ما قال ، (إن الله لا يغفر أن يشرك به) فعند ذلك يقول الكافر (ياليتنى كنت ترابا) أى لم يكن حياً مكلفاً (وثانيها) أنه كان قبل البعث تراباً ، فالمعنى على هذا . ياليتنى لم أبعث للحساب . وبقيت كما كنت تراباً ، كقوله تعالى (ياليتها كانت القاضية) وقوله (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) (وثالثها) أن البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها بعد المحاسبة (كونى ترابا) فيتمنى الكافر عند ذلك أن يكون هو مثل تلك البهائم فى أن يصير ترابا ، ويتخلص من عذاب الله وأنكر بعض المعتزلة ذلك . وقال إنه تعالى إذا أعادها فهى بين معوض وبين متفضل عليه ، وإذا كان كذلك لم يجز أن يقطعها عن المنافع ، لأن ذلك كالإضرار بها ، ولا يجوز ذلك فى الآخرة ، ثم إن هؤلاء قالوا ، إن هذه الحيوانات إذا انتهت مدة أعواضها جعل الله كل ما كان منها حسن الصورة ثوابا لأهل الجنة ، وما كان قبيح الصورة عقابا لأهل النار ، قال القاضى : ولا يمتنع أيضاً إذا وفر الله أعواضها وهى غير كاملة العقل أن يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ذلك ضرراً (ورابعها) ما ذكره بعض الصوفية فقال قوله (ياليتنى كنت تراباً) معناه ياليتنى كنت متواضعاً فى طاعة الله ولم أكن متكبراً متمرداً (وخامسها) الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون الشىء الذى احتقره حين قال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ،

# ٧٨ — سورة النبأ
## ( مكية وهى أربعون آية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ ٧٨ النبإ

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٧٨ النبإ

﴿سورة النبأ مكية وآياتها أربعون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (عم) أصله عما فحذف منه الألف إما فرقاً بين ما الاستفهامية وغيرها أو قصداً للخفة لكثرة استعمالها وقد قرىء على الأصل ومافيها من الإبهام للإيذان بفخامة شأن المسؤل عنه وهوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة أى عن أى شىء عظيم الشأن ( يتساءلون ) أى أهل مكة وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاء لكن لاعلى طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذى هو حال من أحواله ووصف من أوصافه فإن ما وإن وضعت لطلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها كما فى قولك ما الملك وما الروح لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال عالم أو طبيب وقيل كانوا يسألون عنه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين استهزاء كقولهم يتداعونهم أى يدعونهم وتحقيقه أن صيغة التفاعل فى الأفعال المتعدية موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معاً لكنه يرفع بإسناد الفعل إليه ترجيحاً لجانب فاعليته ويحال بمفعوليته على دلالة العقل كما فى قولك تراءى القوم أى رأى كل واحد منهم الآخر وقد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها مجرد صدور الفعل عن المتعدد عارياً عن اعتبار وقوعه عليه فيذكر للفعل حينئذ مفعول متعدد كما فى المثال المذكور أو واحد كما فى قولك تراءوا الهلال وقد يحذف لظهوره كما فيما نحن فيه فالمعنى عن أى شىء يسأل هؤلاء القوم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وربما تجرد عن صدور الفعل عن المتعدد أيضاً فيراد بها

٢ تعدده باعتبار تعدد متعلقه مع وحدة الفاعل كما فى قوله تعالى فبأى آلاء ربك تتمارى وقوله تعالى (عن البنأ العظيم) بيان لشأن المسؤل عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين فإن إيراده على طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على أنه لانقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بأن يعتنى بمعرفته ويسأل عنه كأنه قيل عن أى شىء يتساءلون هل أخبركم به ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على منهاج قوله تعالى لمن الملك اليوم

ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ٧٨ النبإ

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ٧٨ النبإ

لله الواحد القهار فمن متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه أن يقدر بعدها مسارعة إلى البيان ومراعاة لترتيب السؤال هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيلية وقد قيل هى متعلقة بالمذكور وعم متعلق بمضمر مفسر به وأيد ذلك بأنه قرىء عمه والأظهر أنه مبنى على إجراء الوصل مجرى الوقف وقيل عن الأولى للتعليل كأنه قيل لم يتساءلون عن النبأ العظيم وقيل قبل عن الثانية استفهام مضمر كأنه قيل عم يتساءلون أعن النبأ العظيم والنبأ الخبر الذى له شأن وخطر وقد وصف بقوله تعالى (الذى هم فيه مختلفون) ٣ بعد وصفه بالعظيم تأكيداً لخطره إثر تأكيد وإشعاراً بمدار التساؤل عنه وفيه متعلق بمختلفون قدم عليه اهتماماً به ورعاية للفواصل وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات أى هم راسخون فى الاختلاف فيه فمن جازم باستحالته يقول إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما نحن بمبعوثين وشاك يقول ماندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين وقيل منهم من ينكر المعادين معاً كهؤلاء ومنهم من ينكر المعاد الجسمانى فقط كجمهور النصارى وقد حمل الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الإنكار فمنهم من ينكره لإنكاره الصانع المختار ومنهم من ينكره بناء على استحالة إعادة المعدوم بعينه وحمله على الاختلاف بالنفى والإثبات بناء على تعميم التساؤل لفريقى المسلمين والكافرين على أن سؤال الأولين ليزدادوا خشية واستعداداً وسؤال الآخرين ليزدادوا كفراً وعناداً يرده قوله تعالى (كلا سيعلمون) الخ فإنه صريح فى أن المراد اختلاف الجاهلين به المنكرين له إذ عليه يدور ٤ الردع والوعيد لا على خلاف المؤمنين لهم وتخصيصهما بالكفرة بناء على تخصيص ضمير سيعلمون بهم مع عموم الضميرين السابقين للكل مما ينبغى تنزيه التنزيل عن أمثاله هذا ما أدى إليه جليل النظر والذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق أن يحمل اختلافهم على مخالفتهم للنبى عليه الصلاة والسلام بأن يعتبر فى الاختلاف محض صدور الفعل عن المتعدد حسبما ذكر فى التساؤل فإن الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل إلى غير ذلك يجرى فى كل منهما ما يجرى فى الأخرى لا على مخالفة بعضهم لبعض من الجانبين لأن الكل وإن استحق الردع والوعيد لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر إذ لا حقية فى شىء منهما حتى يستحق من يخالفه المؤاخذة بل لمخالفته له عليه الصلاة والسلام فكلا ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين وسيعلمون وعيد لهم بطريق الاستئناف وتعليل للردع والسين للتقريب والتأكيد وليس مفعوله ما ينبىء عنه المقام من وقوع ما يتساءلون عنه ووقوع ما يختلفون فيه كما فى قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ـ إلى قوله تعالى ـ ليبين لهم الذى يختلفون فيه الآية فإن ذلك عار عن صريح الوعيد بل هو عبارة عما يلاقونه من فنون الدواهى والعقوبات والتعبير عن لقائها بالعلم

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ٧٨ النبإ

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ ٧٨ النبإ

وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ٧٨ النبإ

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ ٧٨ النبإ

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ٧٨ النبإ

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ٧٨ النبإ

---

لوقوعه فى معرض التساؤل والاختلاف والمعنى ليرتدعوا عما هم عليه فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة
٥ الحال إذا حل بهم العذاب والنكال وقوله تعالى (ثم كلا سيعلمون) تكرير للردع والوعيد للمبالغة
فى التأكيد والتشديد وثم للدلالة على أن الوعيد الثانى أبلغ وأشد وقيل الأول عند النزع والثانى فى
القيامة وقيل الأول للبعث والثانى للجزاء وقرىء ستعلمون بالتاء على نهج الالتفات إلى الخطاب الموافق
لما بعده من الخطابات تشديداً للردع والوعيد لا على تقدير قل لهم كما توهم فإن فيه من الإخلال بجزالة
٧،٦ النظم الكريم مالا يخفى وقوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً) (والجبال أوتاداً) الخ استئناف مسوق
لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته إثر ما نبه عليها بما ذكر من الردع والوعيد
ومن ههنا اتضح أن المتساءل عنه هو البعث لا القرآن أو نبوة النبى عليه الصلاة والسلام كما قيل والهمزة
للتقرير والالتفات إلى الخطاب على القراءة المشهورة للمبالغة فى الإلزام والتبكيت والمهاد البساط
والفراش وقرىء مهداً على تشبيهها بمهد الصبى وهو مايمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر وجعل
٨ الجبال أوتاداً لها إرساؤها بها كما يرسى البيت بالأوتاد (وخلقناكم) عطف على المضارع المنفى بلم داخل
فى حكمه فإنه فى قوة أما جعلنا الخ أو على مايقتضيه الإنكار التقريرى فإنه فى قوة أن يقال قد جعلنا
* الخ (أزواجا) أصنافاً ذكراً وأنثى ليسكن كل من الصنفين إلى الآخر وينتظم أمر المعاشرة والمعاش
٩ ويتسنى التناسل (وجعلنا نومكم سباتاً) أى موتاً لأنه أحد التوفيين لما بينهما من المشاركة التامة فى
انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الأنفس حين
موتها والتى لم تمت فى منامها وقيل قطعاً عن الإحساس والحركة لاراحة القوى الحيوانية وإزاحة
١٠ كلالها والأول هو اللائق بالمقام كما ستعرفه (وجعلنا الليل) الذى فيه يقع النوم غالباً (لباساً) يستركم
بظلامه كما يستركم اللباس ولعل المراد به مايستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه فإن شبه الليل به أكمل
واعتباره فى تحقيق المقصد أدخل فهو جعل الليل محلا للنوم الذى جعل موتاً كما جعل النهار محلا لليقظة

وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ٧٨ النبإ

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ٧٨ النبإ

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ٧٨ النبإ

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ٧٨ النبإ

---

١١ المعبر عنها بالحياة فى قوله تعالى ( وجعلنا النهار معاشاً ) أى وقت حياة تبعثون فيه من نومكم الذى هو أخو الموت كما فى قوله تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً وجعل كون الليل لباساً عبارة عن ستره عن العيون لمن أراد هرباً من عدو أو بياتاً له أو نحو ذلك مما لا مناسبة له بالمقام وكذا جعل النهار وقت التقلب فى تحصيل المعايش والحوايج ( وبنينا فوقكم سبعاً شداداً )

١٢ أى سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور وكر العصور والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط بل للتشويق إليه فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فإذا ورد عليها تمكن عندها فضل تمكن ( وجعلنا سراجا وهاجا ) هـــذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق خلا أنه مختص

١٣ بالإنشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة وللتشريعى أيضاً كما فى قوله تعالى ما جعل الله من بحيرة الخ وقوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً وأياً ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشىء آخر بأن يكون فيه أوله أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شىء من الظروف لغواً كان أو مستقراً لكن لا على أن يكون عمدة فى الكلام بل قيداً فيه كما فى قوله تعالى وجعل بينهما برزخا وقوله تعالى وجعل فيها رواسى وقوله تعالى واجعل لنا من لدنك ولياً الآية فإن كل واحد من هـذه الظروف إما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأياً ما كان فهو قيد فى الكلام حتى إذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعدياً إلى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم وربما يشتبه الأمر فيظن أنه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى إنى جاعل فى الأرض خليفة والوهاج الوقاد المتلألىء من وهجت النار إذا أضاءت أو البالغ فى الحرارة من الوهج والمراد به الشمس والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السموات بالبناء ( وأنزلنا من المعصرات ) هى

١٤ السحائب إذا أعصرت أى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كما فى أحصد الزرع إذا حان له أن يحصد ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض أو الرياح التى حان لها أن تعصر السحاب وقرىء بالمعصرات ووجه ذلك أن الإنزال حيث كان من المعصرات سواء أريد بها السحائب أو الرياح فقد كان بها كما يقال أعطاه من يده وبيده وقد فسرت المعصرات بالرياح ذوات الأعاصير ووجهه أن الرياح هى التى

لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ ٧٨ النبإ

وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ٧٨ النبإ

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ ٧٨ النبإ

* تنشىء السحاب وتدر أخلافه فصلحت أن تجعل مبتدأ للإنزال (ماء ثجاجا) أى منصباً بكثرة يقال ثج الماء أى سال بكثرة وثجه أى أساله ومنه قوله عليه الصلاة والسلام أفضل الحج العج والثج أى

١٥ رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى وقرىء ثجاحا بالحاء بعد الجيم قالوا مثاجح الماء مصابه (لنخرج

* به) بذلك الماء (حباً) يقتات كالحنطة والشعير ونحوهما (ونباتاً) يعتلف كالتبن والحشيش وتقديم

١٦ الحب مع تأخره عن النبات فى الإخراج لأصالته وشرفه لأن غالبه غذاء الإنسان (وجنات) الجنة فى الأصل هى المرة من مصدر جنه إذا ستره تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه قال زهير بن أبى سلمى [كأن عينى فى غربى مقتلة * من النواضح تسقى جنة سحقاً] وعلى الأرض ذات

* الشجر قال الفراء الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه الكرم والأول هو المراد وقوله تعالى (ألفافا) أى ملتفة تداخل بعضها فى بعض قالوا لا واحد له كالأوزاع والأخياف وقيل الواحد لف ككن وأكنان أو لفيف كشريف وأشراف وقيل هو جمع لف جمع لفاء كخضر وخضراء وقيل جمع ملتفة بحذف الزوائد واعلم أن فيما ذكر من أفعاله عز وجل دلالة على صحة البعث وحقيته من وجوه ثلاثة الأول باعتبار قدرته تعالى فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدر وأقوى الثانى باعتبار علمه وحكمته فإن من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة إلى الخلق يستحيل أن ينفيها بالكلية ولا يجعل لها عاقبة باقية والثالث باعتبار نفس الفعل فإن اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كل يوم وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة يعاينونه كل حين كأنه قيل ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للإيمان به فما لكم تخوضون

١٧ فيه إنكاراً وتتساءلون عنه استهزاء وقوله تعالى (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) شروع فى بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ونوع تفصيل لكيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالا أى إن يوم فصل الله عز وجل بين الخلائق كان فى علمه وتقديره ميقاتاً وميعاداً لبعث الأولين والآخرين وما يترتب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر وقيل حداً توقت به الدنيا وتنتهى عنده أو حداً للخلائق ينتهون فيه ولا ريب فى أنهما بمعزل من التقريب الذى أشير إليه على أن الدنيا تنتهى عند النفخة الأولى

يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ٧٨ النبإ

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ ٧٨ النبإ

١٨ وقوله تعالى ( يوم ينفخ فى الصور ) أى نفخة ثانية بدل من يوم الفصل أو عطف بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ولاضير فى تأخر الفصل عن النفخ فإنه زمان ممتد يقع فى مبدئه النفخة وفى بقيته الفصل ومباديه وآثاره والصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش متى يؤمر به فينفخ فيه نفخة لا يبقى عندها فى الحياة غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون والفاء فى قوله تعالى ( فتأتون ) فصيحة تفصح عن جملة قد *
حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلا ( أفواجا ) أى أمماً *
كل أمة مع إمامها كما فى قوله تعالى يوم ندعو كل أناس بإمامهم أو زمراً وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها . عن معاذ رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم يامعاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ثم أرسل عينيه وقال تحشر عشرة أصناف من أمتى بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمى وبعضهم صم بكم وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهى مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا وأما العمى فالذين يجورون فى الحكم وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان وأما الذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله تعالى فى أموالهم

١٩ وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء ( وفتحت السماء ) عطف على ينفخ وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقرىء فتحت بالتشديد وهو الأنسب بقوله تعالى (فكانت أبواباً) أى *
كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة نزولا غير معتاد حتى صارت كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة

وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ٧٨ النبإ

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ٧٨ النبإ

لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ٧٨ النبإ

كقوله تعالى وفجرنا الأرض عيوناً كأن كلها عيون متفجرة وهو المراد بقوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله أى أمره وبأسه فى ظلل من الغمام والملائكة وقيل الأبواب الطرق والمسالك أى تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شىء

٢٠ (وسيرت الجبال) أى فى الجو على هيآتها بعد قلعها من مقارها كما يعرب عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب أى تراها رأى العين ساكنة فى أماكنها والحال أنها تمر مر السحاب الذى يسيره الرياح سيراً حثيثاً وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحوا من الأنحاء لا تكاد يتبين حركتها وإن كانت فى غاية السرعة لاسيما من بعيد وعليه قول من قال [بارعن مثل الطود تحسب أنهم * وقوف لحاج والركاب تهملج] وقد أدمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق به قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش يبدل الله تعالى الأرض ويغير هيآتها ويسير الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها ثم

* يفرقها فى الهواء وذلك قوله تعالى (فكانت سراباً) أى فصارت بعد تسييرها مثل السراب كقوله تعالى وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً أى غباراً منتشراً وهى وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فإن اتباع الداعى

٢١ الذى هو إسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لايكون إلا بعد النفخة الثانية (إن جهنم كانت مرصاداً) شروع فى تفصيل أحكام الفصل الذى أضيف إليه اليوم إثر بيان هوله ووجه تقديم بيان حال الكفار غنى عن البيان والمرصاد اسم للمكان الذى يرصد فيه كالمضمار الذى هو اسم للمكان الذى يضمر فيه الخيل والمنهاج اسم للمكان الذى ينهج فيه أى إنها كانت فى حكم الله تعالى وقضائه موضع

٢٢ رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها (للطاغين) متعلق بمضمر هو إما نعت لمرصاداً أى

* كائنا للطاغين وقوله تعالى (مآبا) بدل منه أى مرجعا يرجعون إليه لامحالة وإما حال من مآبا قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له وقد جوز أن يتعلق بنفس مآبا على أنها مرصاد للفريقين مآب للكافرين خاصة ولا يخفى بعده فإن المتبادر من كونها مرصاداً لطائفة كونهم معذبين بها وقد قيل إنها مرصاد لأهل الجنة يرصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها وهى مآب للطاغين

لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ٧٨ النبإ

لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ٧٨ النبإ

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ٧٨ النبإ

جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ٧٨ النبإ

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ٧٨ النبإ

وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ٧٨ النبإ

وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ٧٨ النبإ

---

وقيل المرصاد صيغة مبالغة من الرصد والمعنى أنها مجدة فى ترصد الكفار لئلا يشذ منهم أحد وقرىء
أن بالفتح على تعليل قيام الساعة بأنها مرصاد للطاغين (لابثين فيها) حال مقدرة من المستكن فى للطاغين ٢٣
وقرىء لبثين وقوله تعالى ( أحقاباً ) ظرف للبثهم أى دهوراً متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر *
إلى غير نهاية فإن الحقب لايكاد يستعمل إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها فليس فيه مايدل على
تناهى تلك الأحقاب ولو أريد بالحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة وقوله تعالى (لايذوقون فيها ٢٤
برداً ولا شراباً) (إلا حميا وغساقاً) جملة مبتدأة أخبر عنهم بأنهم لايذوقون فيها شيئاً مامن برد وروح ٢٥
ينفس عنهم حر النار ولا من شراب يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميا وغساقاً وقيل البرد
النوم وقرىء غساقاً بالتخفيف وكلاهما مايسيل من صديدهم ( جزاء ) أى جوزوا بذلك جزاء (وفاقاً) ٢٦
ذا وفاق لأعمالهم أو نفس الوفاق مبالغة أو وافقها وفاقا وقرىء وفاقا على أنه فعال من وفقه كذا أى
لاقه (إنهم كانوا لايرجون حساباً) تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور أى كانوا لايخافون أن يحاسبوا ٢٧
بأعمالهم ( وكذبوا بآياتنا ) الناطقة بذلك (كذاباً ) أى تكذيباً مفرطا ولذلك كانوا مصرين على ٢٨
الكفر وفنون المعاصى وفعال من باب فعل شائع فيما بين الفصحاء وقرىء بالتخفيف وهو مصدر كذب
قال [ فصدقتها وكذبتها * والمرء ينفعه كذابه ] وانتصابه إما بفعله المدلول عليه بكذبوا أى وكذبوا
بآياتنا فكذبوا كذابا وإما بنفس كذبوا لتضمنه معنى كذبوا فإن كل من يكذب بالحق فهو كاذب
وقرىء كذابا وهو جمع كاذب فانتصابه على الحالية أى كذبوا بآياتنا كاذبين وقد يكون الكذاب بمعنى
الواحد البليغ فى الكذب فيجعل صفة لمصدر كذبوا أى تكذيبا كذابا مفرطا كذبه ( وكل شىء ) ٢٩
من الأشياء التى من جملتها أعمالهم وانتصابه بمضمر يفسره ( أحصيناه ) أى حفظناه وضبطناه وقرىء *

فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ٧٨ النبإ

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ٧٨ النبإ

حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ ٧٨ النبإ

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ٧٨ النبإ

وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ٧٨ النبإ

لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ ٧٨ النبإ

جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ٧٨ النبإ

---

* بالرفع على الابتداء (كتابا) مصدر مؤكد لأحصيناه لما أن الاحصاء والكتبة من واد واحد أو

٣٠ لفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوبا فى اللوح أو فى صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وفى الالتفات المنبيء عن التشديد فى التهديد وإيراد لن المفيدة لكون ترك الزيادة من قبيل مالا يدخل تحت الصحة من الدلالة على تبالغ الغضب مالا يخفى وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أن هذه الآية أشد مافى القرآن على أهل

٣١ النار (إن للمتقين مفازاً) شروع فى بيان محاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء أحوال الكفرة أى إن للذين يتقون الكفر وسائر قبائح أعمال الكفرة فوزاً وظفراً بمباغيهم أو موضع فوز وقيل نجاة

٣٢ مما فيه أولئك أو موضع نجاة وقوله تعالى (حدائق وأعنابا) أى بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة

٣٣ وكروما بدل من مفازاً (وكواعب) أى نساء فلكت ثديهن وهن النواهد (أترابا) أى لدات

٣٤،٣٥ (وكأسا دهاقا) أى مترعة يقال أدهق الحوض أى ملأه (لايسمعون فيها) أى فى الجنة وقيل فى

* الكأس (لغوا ولا كذبا) أى لاينطقون بلغو ولا يكذب بعضهم بعضا وقرىء كذابا بالتخفيف

٣٦ أى لا يكذبه أو لا يكاذبه (جزاء من ربك) مصدر مؤكد منصوب بمعنى إن للمتقين مفازا فإنه فى قوة أن يقال جازى المتقين بمفاز جزاء كائنا من ربك والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئا فشيئا مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام مزيد تشريف له صلى الله عليه وسلم

* (عطاء) أى تفضلا وإحسانا منه تعالى إذ لايجب عليه شيء وهو بدل من جزاء (حسابا) صفة لعطاء بمعنى كافيا على أنه مصدر أقيم مقام الوصف أو بولغ فيه من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي وقيل على حسب أعمالهم وقرىء حسابا بالتشديد على أنه بمعنى المحتسب كالدراك بمعنى المدرك .

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ٧٨ النبإ

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ٧٨ النبإ

٣٧ (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك وقوله تعالى (الرحمن) صفة له وقيل صفة للأول وأياً ما كان ففي ذكر ربوبيته تعالى للكل ورحمته الواسعة إشعار بمدار الجزاء المذكور وقوله تعالى (لايملكون منه خطاباً) استئناف مقرر لما أفاده الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء واستقلاله * تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد قدرة عليه وقرىء برفعهما فقيل على أنهما خبران لمبتدأ مضمر وقيل الثانى نعت للأول وقيل الأول مبتدأ والثانى خبره ولا يملكون خبر آخر أو هو الخبر والرحمن صفة للأول وقيل لايملكون حال لازمة وقيل الأول مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر للأول وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه على رأى من يقول به والأوجه أن يكون كلاهما مرفوعا على المدح أو يكون الثانى نعتاً للأول ولا يملكون استئنافا على حاله ففيه ماذكر من الإشعار بمدار الجزاء والعطاء كما فى البدلية لما أن المرفوع أو المنصوب مدحا تابع لما قبله معنى وإن كان منقطعاً عنه إعراباً كما فصل فى قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب من سورة البقرة وقرىء بجر الأول على البدلية ورفع الثانى على الابتداء والخبر مابعده أو على أنه خبر لمبتدأ مضمر وما بعده استئناف أو خبر ثان أو حال وضمير لايملكون لأهل السموات والأرض أى لايملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم كما ينبىء عنه لفظ الملك خطاباً مافى شىء ما والمراد نفى قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشىء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه على أبلغ وجه وآكده وقيل ليس فى أيديهم مما يخاطب الله به ويأمر به فى أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) قيل الروح خلق أعظم من ٣٨ الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وقيل هو ملك ماخلق الله عز وجل بعد العرش خلقاً أعظم منه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه إذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفاً والملائكة كلهم صفاً وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الروح جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل يأكلون الطعام ثم قرأ يوم يقوم الروح الآية وهذا قول أبى صالح ومجاهد قالوا ماينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم نقله البغوى وقيل هم أشراف الملائكة وقيل هم حفظة على الملائكة وقيل جبريل عليه السلام وصفاً حال أى مصطفين قيل هما صفان الروح صف واحد أو متعدد والملائكة صف وقيل صفوف وهو الأوفق لقوله تعالى والملك صفا صفا وقيل يقوم الكل صفا واحداً ويوم ظرف لقوله تعالى (لايتكلمون) وقوله تعالى (إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) بدل من ضمير * لايتكلمون العائد إلى أهل السموات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظمة سلطانه وكبرياء ربوبيته وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من

ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ٧٨ النبإ

إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ٧٨ النبإ

مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها والجملة استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لايملكون الخ ومؤكد له على معنى أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدروا يومئذ على أن يتكلموا بشيء من جنس الكلام إلا من أذن الله تعالى له منهم فى التكلم وقال ذلك المأذون له قولا صوابا أى حقاً فكيف يملكون خطاب رب العزة مع كونه أخص من مطلق الكلام وأعز منه مراماً لاعلى معنى أن الروح والملائكة مع كونهم أفضل الخلائق وأقربهم من الله تعالى إذا لم يقدروا أن يتكلموا بما هو صواب من الشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه فكيف يملكه غيرهم كما قيل فإنه مؤسس على قاعدة الاعتزال فمن سلكه مع تجويزه أن يكون يوم ظرفا للا يملكون فقد اشتبه عليه الشؤن واختلط به الظنون وقيل إلا من أذن الخ منصوب على أصل الاستثناء والمعنى لايتكلمون إلا فى حق شخص أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص صواباً أى حقاً هو التوحيد وإظهار الرحمن فى موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة

٣٩ البالغة لا أن أحداً يستحقه عليه سبحانه وتعالى (ذلك) إشارة إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الهول والفخامة ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده أى ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير

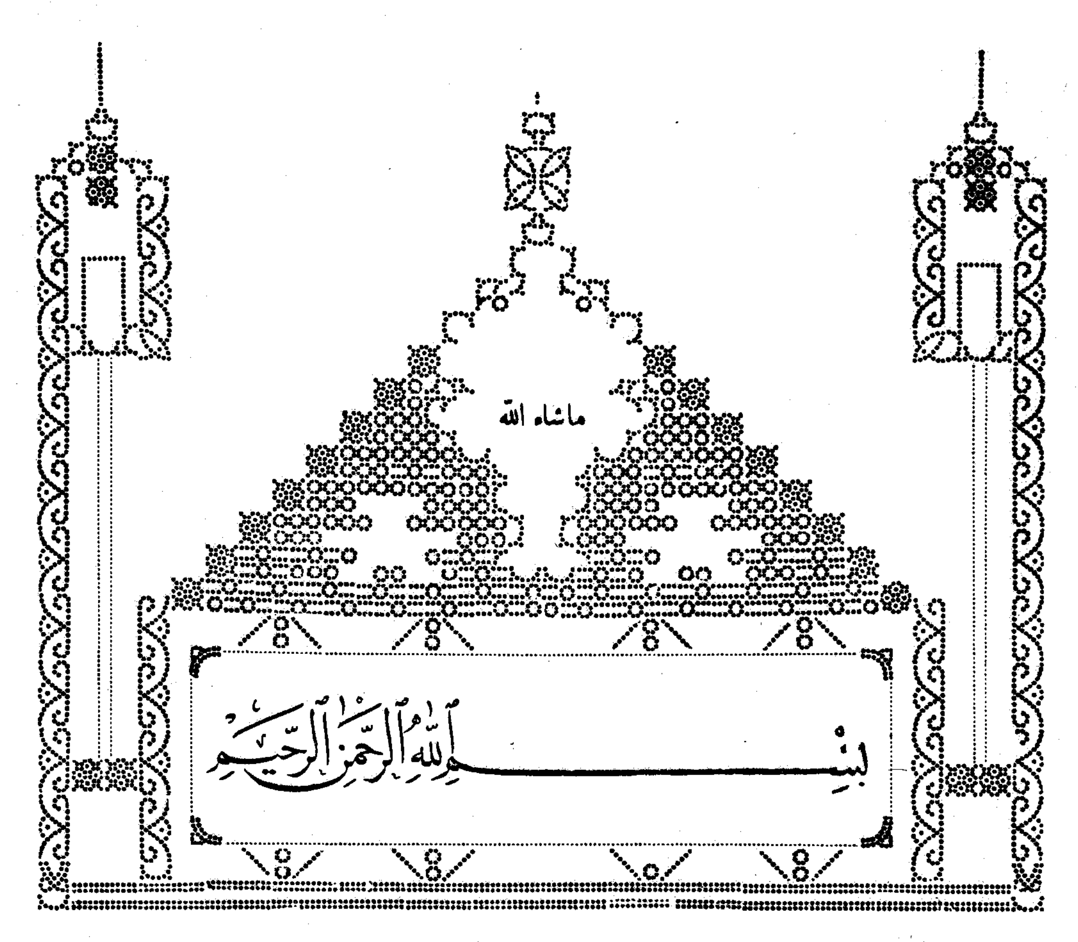
* قادرين هم وغيرهم على التكلم من الهيبة والجلال (اليوم الحق) أى الثابت المتحقق لامحالة من غير

* صارف يلويه ولا عاطف يثنيه والفاء فى قوله تعالى (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقه بها حسب القاعدة المستمرة وإلى ربه متعلق بمآبا قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل كأنه قيل وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لامحالة فمن شاء أن يتخذ مرجعا إلى ثواب ربه الذى ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالإيمان والطاعة وقال قتادة مآبا أى سبيلا وتعلق الجار به لما فيه من

٤٠ معنى الإفضاء والإيصال كما مر فى قوله تعالى من استطاع إليه سبيلا (إنا أنذرناكم) أى بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده من الدواهى أو بها بسائر القوارع الواردة فى القرآن

* (عذابا قريبا) هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه حتما ولأنه قريب بالنسبة إليه تعالى وإن رأوه بعيدا وسيرونه قريبا لقوله تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وعن قتادة هو عقوبة

* الدنيا لأنه أقرب العذابين وعن مقاتل هو قتل قريش يوم بدر وقوله تعالى (يوم ينظر المرء ماقدمت يداه) فإنه إما بدل من عذابا أو ظرف لمضمر هو صفة له أى عذابا كائنا يوم ينظر المرء أى يشاهد




## سورة النبأ

وتسمى سورة عم وعم يتساءلون والتساؤل والمعصرات وهي مكية بالاتفاق وآيها احدى وأربعون في المكى والبصرى وأربعون في غيرهما ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على اثبات القدرة على البعث الذى دل ماقبل على تكذيب الكفرة به وفي تناسق الدرر وجه اتصالها بما قبل تناسبها معها في الجمل فان في تلك ألم نهلك الاولين ألم نخلقكم من ماء مهين ألم نجعل الارض كفاتا الخ وفي هذه ألم نجعل الارض مهادا الخ مع اشتراكها والاربع قبلها في الاشتمال على وصف الجنة والنار وما وعد المدثر وأيضا في سورة المرسلات لاى يوم أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل وفي هذه أن يوم الفصل كان ميقاتا الخ ففيها شرح يوم الفصل المجمل ذكره فيما قبلها اه وقيل أنه تعالى لما ختم تلك بقوله سبحانه فبأى حديث بعده يؤمنون وكان المراد بالحديث فيه القرآن افتتح هذه بتهويل التساؤل عنه والاستهزاء به وهو مبنى على ما روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ان المراد بالنبأ العظيم القرآن والجمهور على أنه البعث وهو الانسب بالآيات بعد كما ستعرفه ان شاء الله تعالى

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ ﴾ أصله عما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية فحذفت الالف وعلل بالتفرقة بينها وبين الخبرية والايذان بشدة الاتصال وكثرة الدوران وحال العلل النحوية معلوم وقد قرأ عبد الله وأبى وعكرمة وعيسى بالالف على الاصل وهو قليل الاستعمال وقال ابن جنى

اثبات الالف أضعف اللغتين وعليه قوله

على ما قام يشتمني لئيم ☆ كخنزير تمرغ في رماد

والاستفهام للايذان بفخامة شأن المسؤل عنه وهوله وخروجه عن حدود الاجناس المعهودة أى عن أى شيء عظيم الشأن ( يَتَسَاءَلُونَ ) الضمير لاهل مكة وان لم يسبق ذكرهم للاستغناء عنه بحضورهم حسا مع ما في الترك على ما قيل من التحقير والاهانة لاشعاره بان ذكرهم مما يصان عنه ساحة الذكر الحكيم ولا يتوهم العكس لمنع المقام عنه وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه انكارا واستهزاء لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذى هو حال من أحواله ووصف من أوصافه وما كما مر غير مرة وان اشتهرت في طلب حقائق الاشياء ومسميات اسمائها لكنها قد يطلب بها الصفة والحال فيقال ما زيد ويجاب بعالم أو طبيب وقيل كانوا يتساءلون الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين استهزاء فالتساؤل متعد ومفعوله مقدر هنا وحذف لظهوره أو لان المستعظم السؤال بقطع النظر عمن سأل أولصون المسؤل عن ذكره مع هذا السائل وتحقيق ذلك على ما في الارشاد أن صيغة التفاعل في الافعال المتعدية لافادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنه يرفع المتعدد على الفاعلية ترجيحا لجانب فاعليته وتحال مفعوليته على دلالة الفعل كما في قولك تراءى القوم أى رأى كل واحد منهم الآخر وقد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها مجرد صدور الفعل عن المتعدد عاريا عن اعتبار وقوعه عليه فيذكر للفعل حينئذ مفعول كما في قولك تراأوا الهلال وقد يحذف كما فيما نحن فيه فالمعنى عن أى شيء يسأل هؤلاء القوم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين وربما تجرد عن صدور الفعل عن المتعدد أيضا فيراد بها تعدده باعتبار تعدد متعلقه مع وحدة الفاعل كما في قوله تعالى فبأى آلاء ربك تتمارى وذكر بعض المحققين أنه قد يكون لصيغة التفاعل على الوجه الاول مفعول أيضا لكنه غير الذى فعل به مثل فعله كما في تعاطيا الكاس وتفاوضا الحديث وعليه قول امرىء القيس

فلما تنازعنا الحديث واسمحت ☆ هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

فمن قال أن تفاعل لا يكون الامن اثنين ولا يكون الا لازما فقد غلط كما قال الطبليوسى في شرح أدب الكاتب ان أراد ذلك على الاطلاق وليت شعرى كيف يصح ذلك مع ان مجيء تفاعل بمعنى فعل غير متعدد الفاعل كتوانى زيد وتدانى الامر وتعالى الله عما يشركون كثير جدا وكذا مجيئه متعديا الى غير الذى فعل به مثل فعله كما سمعت وجوز أن يكون ضمير يتساءلون للناس عموما سواء كانوا كفار مكة وغيرهم من المسلمين وسؤال المسلمين ليزدادوا خشية وايمانا وسؤال غيرهم استهزاء ليزدادوا كفرا وطغيانا وهو خلاف مايقتضيه ظاهر الآيات بعد وقيل كان التساؤل عن القرآن وتعقب بان قوله تعالى ألم نجعل الارض الخ ظاهر في أنه كان عن البعث وهو مروى عن قتادة أيضا لانه من أدلته وأجيب بان تساؤلهم عنه واستهزاؤهم به واختلافهم فيه بأنه سحر أو شعر كان لاشتماله على الاخبار بالبعث فبعد أن ذكر مايفيد استعظام التساؤل عنه تعرض لدليل ماهو منشأ لذلك التساؤل وفيه بعد وقوله تعالى ( عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ) بيان لشأن المسؤل عنه اثر تفخيمه بابهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين فان ايراده على طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على أنه لانقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بان يعتنى بمعرفته ويسأل عنه كأنه قيل عن أى شيء يتساءلون هل أخبركم به ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على

منهاج لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فعن متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه على ما قيل أن يقدر بعدها مسارعة الى البيان ومراعاة لترتيب السؤال والى تعلقه بما ذكر ذهب الزجاج وهو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وقال مكى أن ذلك بدل من ما الاستفهامية باعادة حرف الجر وتعقبه في الكشف بانه لا يصح فان معنى الاول عن النبأ العظيم أم عن غيره والبدل لا يطابقه أعيد الاستفهام أولا وقال الخفاجى البدلية جائزة ولا يلزم اعادة الاستفهام لانه غير حقيقى ولا أن يكون البدل عين الاول لجواز كونه بدل بعض وقيل هو متعلق بيتساءلون المذكور وعم متعلق بمضمر مفسر به وأيد ذلك بقراءة الضحاك ويعقوب وابن كثير في رواية عمه بهاء السكت ووجهه انه على الوقف وهو يدل على أنه غير متعلق بالمذكور لانه لا يحسن الوقف بين الجار والمجرور ومتعلقه لعدم تمام الكلام ولعل من ذهب الى الاول يقول ان الحاق الهاء مبنى على اجراء الوصل مجرى الوقف وقيل عن الاولى للتعليل وهي والثانية متعلقتان بيتساءلون المذكور كانه قيل لم يتساءلون عن النبأ العظيم ونقله ابن عطية عن أكثر النحاة وقيل عن النبأ متعلق بمحذوف وهناك استفهام مضمر كانه قيل عم يتساءلون أيتساءلون عن النبا العظيم ووصف النبا وهو الخبر الذى له شان بالعظيم لتاكيد خطره ووصفه بقوله سبحانه ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ للمبالغة فى ذلك والاشعار بمدار التساؤل عنه وفيه متعلق بمختلفون قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات أى هم راسخون في الاختلاف فيه فمن جازم باستحالته يقول ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا الخ وشاك يقول ما ندرى ما الساعة أن نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين وقيل منهم من ينكر المعادين معا كهؤلاء ومنهم من ينكر المعاد الجسمانى فقط كجمهور النصارى وقد حمل الاختلاف على الاختلاف في كيفية الانكار فمنهم من ينكره لانكاره الصانع المختار تعالى شانه ومنهم من ينكره بناء على استحالة اعادة المعدوم بعينه وقيل الاختلاف بالاقرار والانكار أو بزيادة الخشية والاستهزاء على أن ضمير يتساءلون وضميرهم للناس عامة وقيل يجوز أن يكون الاختلاف بالاقرار والانكار على كون ضمير يتساءلون للكفار أيضا بأن يجعل ضميرهم للسائلين والمسؤلين والكل كما ترى وان تفاوتت مراتب الضعف والمعول عليه الاول وقال مفتى الديار الرومية الذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق أن يحمل اختلافهم في البعث على مخالفتهم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يعتبر في الاختلاف محض صدور الفعل عن المتعدد حسبما قيل في التساؤل فان الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل يجرى في كل منهما ما يجرى في الاخرى لا على مخالفة بعضهم لبعض على أن يكون كل من الجانبين مخالفا اسم فاعل ومخالفا اسم مفعول لان الكل وان استحق ما يذكر بعد من الردع والوعيد لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر اذ لا حقية في شىء منهما حتى يستحق من يخالفه المؤاخذة بل لمخالفته عليه الصلاة والسلام فكانه قيل الذى هم فيه مخالفون للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى وفيه أنه خلاف الظاهر وما ذكره من التعليل لا يخلو عن شىء وقرأ عبد الله وابن جبير تساءلون بغير ياء وشد السين على أن أصله تتساءلون بتاء الخطاب فادغمت التاء الثانية في السين ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التساؤل على الوجهين المتقدمين فيه وقيل عنه وعن الاختلاف بمعنى مخالفة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أمر البعث وتعقب بأن الجملة التى تضمنته لم تقصد لذاتها فيبعد اعتبار الردع الى ما فيها وقوله سبحانه ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لأولئك المتسائلين المستهزئين بطريق الاستئناف وتعليل للردع والسين للتقريب والتأكيد ومفعول يعلمون محذوف وهو ما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات والتعبير

عن لقائه بالعلم لوقوعه في معرض التساؤل والمعنى ليرتدعوا عما هم عليه فانهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال اذا حل بهم العذاب والنكال ومثل هذا تقدير المفعول جزاء التساؤل وقيل هو ما ينبيء عنه الظاهر وهو وقوع ما يتساءلون عنه على معنى سيعلمون ذلك فيخجلون من تساؤلهم واستهزائهم بين يدي ربهم عز وجل والالم يظهر كون ما ذكر وعيدا ومن جعل ضمير يتساءلون للناس عامة جعل ما هنا من باب التغليب لانه لغير المؤمنين بالبعث الجازمين به وجوز بعضهم كون كلا سيعلمون ردعا ووعدا على الارتداع والمراد ليرتدعوا فانهم سيعلمون مثوبات الارتداع وأنت تعلم أن ذلك شائع في الوعيد وهو المتبادر منه في امثال هذه المقامات وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ قيل تكرير لما قبله من الردع والوعيد للمبالغة وثم للتفاوت في الرتبة فكانه قيل لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان بل لهم يومئذ أشد وأشد وبهذا الاعتبار صار كانه مغاير لما قبله فعطف عليه وابن مالك يقول في مثله انه من التوكيد اللفظي وان توسط حرف العطف فلا تغفل وقيل الاول اشارة الى مايكون عند النزع وخروج الروح من زجر ملائكة الموت عليهم السلام وملاقاة كربات الموت وشدائده وانكشاف الغطاء والثاني اشارة الى مايكون في القيامة من زجر ملائكة العذاب عليهم السلام وملاقاة شديد العقاب فثم في محلها لما بينهما من البعد الزماني ولا تكرار فيه والظاهر أن العطف على هذا وماقبله على مجموع كلا سيعلمون وتوهم بعضهم من كلام بعض الاجلة أن العطف على سيعلمون وأورد عليه أن ثم اذا كانت للتراخي الزماني لزم الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه باجنبي بخلاف ما اذا كانت للتراخي الرتبي ووجه لدفع التخصيص بلا مخصص أنه على الثاني يفهم تفاوت الرتبة بين الردعين كتفاوتها بين الوعيدين لتبعية الردع للوعيد فلا تكون كلا الثانية أجنبية بخلاف الاول فان التراخي عليه انما يتحقق فيما يتحقق فيه الزمان وليس هو الا سيعلمون دون كلا فتكون هي اجنبية ثم قال ذلك المتوهم ولا يبعد أن يقال الردع الاول عن التساؤل والثاني عن الانكار أي الصريح وتفاوت ما بينهما يقتضي العطف بثم والكل كما ترى وقيل متعلق العلم في الاول البعث وفي الثاني الجزاء على انكاره وثم في محلها أي كلا سيعلمون حقية البعث اذا بعثوا ثم كلا سيعلمون الجزاء على انكاره اذا دخلوا النار وعوقبوا وجوز أن يكون المتعلق مختلفا وثم للتراخي الرتبي بأن يكون المعنى سيعلم الكفار أحوالهم ثم سيعلمون أحوال المؤمنين والاول اشارة الى العذاب الجسماني والثاني الى العذاب الروحاني الذي هو أشد وأخزى وأن يكون فاعل سيعلم في الموضعين مختلفا بناء على أن ضمير يتساءلون للناس عامة وثم لذلك أيضا بأن يكون المعنى سيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم ثم سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم فيكون الاول وعدا للمؤمنين والآخر وعيدا للكافرين وهما متفاوتان رتبة ولا يخفى عليك ما في ذلك وقرأ مالك بن دينار وابن مقسم والحسن وابن عامر ستعلمون في الموضعين بالتاء الفوقية على نهج الالتفات الى الخطاب الموافق لما بعده من الخطابات تشديدا للردع والوعيد لا على تقدير قل لهم كلا ستعلمون الخ فانه ليس بذاك وان كان فيه نوع حسن على تقدير كون المراد يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن الضحاك أنه قرأ الاول بتاء الخطاب والثاني بياء الغيبة وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ الخ استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته أثر ما نبه عليها بما ذكر من الردع وجوز أن يكون بتقدير قل كأنه قيل قل كيف تنكرون أو تشكون في البعث وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة والعلم المحيط والحكمة الباهرة المقتضية أن لا يكون ما خلق عبثا وفيه أن من كان عظيم الشأن باهر القدرة ينبغي أن يخاف ويخشى ويتأثر من زجره ووعيده والهمزة للتقرير بما بعد النفي والمهاد الفراش الموطأ وفي القاموس المهد الموضع الذي يهيأ للصبي

كالمهاد وعليه فالمهـد والمهاد بمعنى ويؤيده قراءة مجاهد وعيسى الهمدانى مهدا وفي الآية حينئذ تشبيه بليغ وكل منهما مصدر سمى به ما يمهد وجوز أن يكون باقيا على المصدرية والوصف بالمصدر كثير أو التقدير ذات مهاد أو مهد وقيل كما يمكن أن يكون المهاد مصدرا سمي به المفعول يحتمل أن يكون فعالا أى اسما على زنته يؤخذ للمفعول كالاله والامام وجعل الارض مهادا إما في أصل الخلقة أو بعدها وأياما كان فلا دلالة في الآية على ما ينافى كريتها كما هو المشهور من عدة مذاهب ومذهب أهل الهيئة المحدثين أنها مسطحة عند القطبين لانها كانت لينة جدا في مبدا الامر لظهور غاية الحرارة الكامنة فيها اليوم فيها اذ ذاك وقد تحركت على محورها فاقتضى مجموع ذلك صيرورتها مسطحة عنـدها عندهم وأهل الشرع لايقولون بذاك ولا يتم للقائل به دليل حتى يرث الله تعالى الارض ومن عليها ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أى كالاوتاد ففيه تشبيه بليغ أيضا والمراد أرسينا الارض بالجبال كما يرسى البيت بالاوتاد قال الافوه

والبيت لايبتنى الاله عمـد ✫ ولا عماد اذا لم ترس أوتاد

وفي الحديث خلق الله تعالى الارض فجعلت تميد فوضع عليها الجبال فاستقرت فقالت الملائكة ربنا هل خلقت خلقا أشد من الجبال قال نعم الحديد فقالت ربنا هل خلقت خلقا أشد من الحديد قال نعم النار فقالوا ربنا هل خلقت خلقا أشد من النار قال نعم الماء فقالوا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الماء قال نعم الهواء فقالوا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الهواء قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفى ذلك عن شماله وظاهره كغيره أن خلق الجبال بعـد خلق الارض واليه ذهب الفلاسفة المتقدمون والمحدثون وهي متفاوتة عندهم في الحدوث تقدما وتاخرا وجاء في حديث رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس ان أول جبل أبو قبيس وفى كيفية حدوثها منذ حدثت خلاف عندهم وقد يتلاشى ماحدث منها بطول الزمان

ان الجديدين اذا ما استوليا ✫ على جديد أسلماه للبلى

وربما يشاهد حدوث بعض تلاع حجرية من انجماد بعض المياه واستشكل احتياجها للارساء بالجبال مع طلبها المركز بثقلها المطلق وأجيب بانه قد علم الله تعالى أنها ستكن ويكون عليها من الانقال مايكون ومن المعلوم أنها حينئذ يكون لها مركزان مركز حجم ومركز ثقل والذى ينطبق منهما على مركز العالم انما هو مركز الثقل فيلزم من تحرك ثقيل الى جهة المشرق أو المغرب مثلا عليها تحركها لاختلاف مركز ثقلها ولزوم انطباقه على مركز العالم فيحصل الميد ولم تكن اذ ذاك بحيث لايكون لمايكون عليها من أثقال سكنتها قدر يحس به فوضعت عليها الجبال وانطبق مركز ثقلها على مركز العالم وصار مجموع الارض والجبال بحيث لا يظهر للمتحرك بعد قدر يحس به وقيـل انها كانت لخفتها بحيث يحركها أمواج البحر المحيط بها فيحصل الميد فثقلت بالجبال مع ما في الجبال من المنافع الجمة التى لم تخلق الارض لاجلها بحيث لا تحركها الامواج وتمام الـكلام في ذلك حسبما كنا واقفين عليه قد مر فتذكر وحكى عن بعض أن جعلها كذلك بمعنى جعلها سببا لانتظام أهل الارض بما أودع فيها من المنافع ولولاها لمادت بهم أى لما تهيأت للانتفاع بها ولاختـل أمر سكناهم اياها وهو تاويل مناف للظواهر لايحتاج اليه ما لم يقم الدليـل القطعى على محالية ارادة الظاهر نعم قيل ان هذا أقرب للتقرير فان جعلها أوتادا بهذا المعنى أظهر من جعلها كذلك بذاك المعنى وأقرب الى العلم به وربما يقال إنه أوفق لترك اعادة العامل ومن لايراه يجعل النكتة فيـه قوة مابين الارض والجبال من الاشـتراك والارتباط فافهم ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ ﴾ عطف على المضارع المنفى بلم داخل في حكمه فانه فى قوة اما جعلنا الخ أو على مايقتضيه الانكار التقريرى فانه في قوة أن يقال قد جعلنا الخ والالتفات الى الخطاب هنا بناء على القراءة المشهورة في سيعلمون

للمبالغة في الالزام والتبكيت ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ قال الزجاج وغيره مزدوجين ذكرا وأنثى ليتسنى التناسل وينتظم أمر المعاش وقيل أصنافا في اللون والصورة واللسان وقيل يجوز أن يكون المراد من الخلق أزواجا الخلق من منيين مني الرجل ومني المرأة والمعنى خلقنا كل واحد منكم أزواجا باعتبار مادته التي هي عبارة عن منيين فيكون خلقناكم أزواجا من قبيل مقابلة الجمع بالجمع وتوزيع الافراد على الافراد وهو خلاف الظاهر جدا ولا داعي اليه ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي كالسبات ففي الكلام تشبيه بليغ كما تقدم والمراد بالسبات الموت وقد ورد في اللغة بهذا المعنى ووجه تشبيه النوم به ظاهر وعلى ذلك قوله تعالى وهو الذي يتوفاكم بالليل وهو على بناء الادواء مشتق من السبت بمعنى القطع لما فيه من قطع العمل والحركة ويقال سبت شعره اذا حلقه وأنفه اذا اصطلمه وزعم ابن الانباري كما في الدرر أنه لم يسمع السبت بمعنى القطع وكأنه كان أصم وقيل أصل السبت التمدد كالبسط يقال سبت الشعر اذا حل عقاصه وعليه تفسير السبات بالنوم الطويل الممتد والامتنان به لما فيه من عدم الانزعاج وجوز بعضهم حمله على النوم الخفيف بناء على ما في القاموس من اطلاقه عليه على ان المعنى جعلنا نومكم نوما خفيفا غير ممتد فيختل به أمر معاشكم ومعادكم وفي البحر سباتا أي سكونا وراحة يقال سبت الرجل اذا استراح وزعم ابن الانباري أيضا عدم سماع سبت بهذا المعنى ورد عليه المرتضى بانه أريد الراحة اللازمة للنوم وقطع الاحساس فان في ذلك راحة القوى الحيوانية مما عراها في اليقظة من الكلال ومنه سمي اليوم المعروف سبتا لفراغ وراحة لهم فيه وقيل سمي بذلك لان الله تعالى ابتدأ بخلق السموات والارض يوم الاحد فخلقها في ستة أيام كما ذكر عز وجل فقطع عمله سبحانه يوم السبت فسمي بذلك واختار المحققون كون السبات هنا بمعنى الموت لانه أنسب بالمقام كما لا يخفى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ ﴾ الذي يقع فيه النوم غالبا ﴿ لِبَاسًا ﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ولعل المراد بهذا اللباس المشبه به ما يستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه فان شبه الليل به أكمل واعتباره في تحقيق المقصود أدخل واختار غير واحد ارادة الاعم وان المعنى جعلناه ساترا لكم عن العيون اذا اردتم هربا من عدو او بياتا له اوخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الامور وقد عد المتنبي من نعم الليل البيات على الاعداء والفوز بزيارة المحبوب والاتقاء مكذبا ما اشتهر من مذهب المانوية من ان الخير منسوب الى النور والشر الى الظلمة بالمعنى المعروف (١) فقال

وكم لظلام الليل عندي من يد ☆ تخبر ان المانوية تكذب

وقاك ردى الاعداء تسري اليهم ☆ وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وقال بعضهم يمكن أن يحمل كون الليل كاللباس على كونه كاللباس المدوم في سهولة اخراجه ومنه ولا يخفى بعده ومما يقضى منه العجب استدلال بعضهم بهذه الآية على ان من صلى عريانا في ليل أو ظلمة فصلاته صحيحة ولعمري لقد أتى بعري عن لباس التحقيق كما لا يخفى على من اشرق عليه ضياء الحق الحقيق ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ مصدر ميمي بمعنى العيش وهو الحياة المختصة بالحيوان على ما قال الراغب دون العامة لحياة الملك مثلا ووقع هنا ظرفا كما قيل في نحو أتيتك خفوق النجم وطلوع الفجر وجوز ان يكون اسم زمان وتعقب بانه لم يثبت مجيئه كذلك في اللغة والمعنى وجعلنا النهار وقت معاش أي حياة تبعثون فيه من نومكم الذي هو أخو الموت وكأنه لما جعل سبحانه النوم موتا مجازا جعل حل شأنه اليقظة معاشا كذلك لكن أوثر النهار ليناسب المتوسط وقيل المعنى وجعلنا النهار وقت معاش تتقلبون فيه لتحصيل ما تعيشون به وهو أنسب بجعل السبات فيما تقدم بمعنى القطع عن الحركة على ما قيل ولا يخفى حسن ذكر جعل الليل لباسا بعد جعل النوم سباتا وهو مشير الى حكمة جعل النوم

«١» وهو مما لا يكاد يذهب اليه عاقل فلعلهم أرادوا صفتي الجلال والجمال اه منه

ليلا أيضا لان النائم معطل الحواس فكان محتاجا لساتر عما يضره فهو أحوج ما يكون للدثار وضرب خيام الاستتار وفي الكشف أن المطابقة بين قوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وقوله سبحانه وجعلنا النهار معاشا مصرحة وفيه مطابقة معنوية أيضا مع قوله تعالى وجعلنا النوم من حيث ان النهار وقت اليقظة والمعاش في مقابلة السبات لانه حركة الحي ومنه علم أن قوله تعالى وجعلنا الليل لباسا غير مستطرد ووجه النظم أنه لماذكر خلقهم أزواجا استوفي أحوالهم مقترنين ومفترقين اه وفيه تعريض بالطيبي حيث زعم الاستطراد اذا أريد بالمعاش اليقظة وبالسبات الموت ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أي سبع سموات قوية الخلق محكمة لا يسقط منها ما يمنعكم المعاش والتعبير عن خلقها بالبناء للاشارة الى تشبيها بالقباب المبنية على سكنتها وقيل للاشارة الى أن خلقها على سبيل التدريج وليس بذاك وفيه أن السماء خيمية لا سطح مستو وفي الآثار ما يشهد له ولا يأباه جعلها سقفا في آية أخرى وقد صح في العرش ما يشهد بخيمية أيضا والفلاسفة السالفون على استدارتها ويطلقون عليها اسم الفلك واستدلوا على ذلك حسب أصولهم بعد الاستدلال على استدارة السطح الظاهر من الارض ولا يكاد يتم لهم دليل عليه قالوا الذي يدل على استدارة السماء هو أنه متى قصدنا عدة مساكن على خط واحد من عرض الارض وحصلنا الكواكب المارة على سمت الرأس في كل واحدة منها ثم اعتبرنا أبعاد ممرات تلك الكواكب في دائرة نصف النهار بعضها من بعض وجدناها على نسب المسافات الارضية بين تلك المساكن وكذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلا بمثل تلك النسب فتحدب السماء في العرض مشابه لتحدب الارض فيه لكن هذا التشابه موجود في كل خط من خطوط العرض وكذا في كل خط من خطوط الطول فسطح السماء باسره مواز لسطح الظاهر من الارض باسره وهذا السطح مستدير حسا فكذا سطح السماء الموازي له وأيضا أصحاب الارصاد دونوا مقادير اجرام الكواكب وابعاد ما بينها في الاماكن المختلفة في وقت واحد كما في انصاف نهار تلك الاماكن مثلا متساوية وهذا يدل على تساوي ابعاد مراكز الكواكب عن مناظر الابصار المستلزم لتساوي أبعادها عن مركز العالم لاستدارة الارض المستلزم لكون السماء كرية وزعموا أن هذين أقرب ما يتمسك بهما في الاستدارة من حيث النظر التعليمي وفي كل مناقشة أما الثاني فالمناقشة فيه انه أنما يصح لو كان الفلك عندهم ساكنا والكوكب متحركا اذ لو كان السماء متحركا جاز أن يكون مربعا ويكون مساواة ابعاد مراكز الكواكب عن مناظر الابصار وتساوي مقادير الاجرام للكواكب حاصلا وأما الاول فالمناقشة فيه انه انما يصح لو كان الاعتدال المذكور موجودا في كل خط من خطوط الطول والعرض وهو غير معلوم وأما غير ماذكر من أدلتهم فمذكور مع مافيه في نهاية الادراك في دراية الافلاك فارجع اليه ان أردته بقي ههنا بحث وهو أن العطف اذا كان على الفصل المنفي بلم داخلا في حكمه يلزم ان يكون بناء سبع سموات شداد فوق معلوما للمخاطبين وهم مشركو مكة المنكرون للبعث كما سمعت ليتأتى تقريرهم به كسائر الامور السابقة واللاحقة فيقال ان كون السموات سبعا مما لايدرك بالمشاهدة وهم المكذبون بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يصدقونه بمثل ذلك مما معرفته بحسب الظاهر انما هي من طريق الوحي وأجيب بانهم علموا ذلك بواسطة مشاهدتهم اختلاف حركات السيارات السبع مع اختلاف أبعادها بعضها عن بعض وذلك أنهم علموا السيارات واختلاف حركاتها وعلموا أن بعضها فوق بعض لخسف بعضها بعضا فقالوا في بادىء النظر بسبع سموات كل سماء لكوكب من هاتك الكواكب ولا يلزمنا البحث عما قالوا في الثوابت وفي المحرك لها وللسبع بالحركة اليومية اذ هو وراء مانحن فيه واعترض بأن هذا لايتم الا اذا كانوا قائلين بأن السماء

عبارة عن الفلك وأنها تتحرك على الاستدارة ويكون أوجها حضيضا وحضيضها أوجا وأنهم لا يقولون بذلك وانما يقولون كبعض السلف من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ان السماء ساكنة والكوكب متحرك والفلك انما هو مجراه وحينئذ فيجوز أن تكون السبع على اختلاف حركاتها وأبعادها في ثخن سماء واحدة تجرى في افلاك ومجارلها على الوجه المحسوس ويجوز أيضا غير ذلك كما لا يخفى وأيضا لو كان علمهم بذلك مما ذكر لقالوا بالتداوير ونحوها أيضا كما قال بذلك أهل الهيئة السالفون لان اختلاف الحركات يقتضيه بزعمهم لا سيما في المتحيرة ولو كان العرب قائلين به لوقع في أشعارهم بل لا يبعد أنه لو ذكر لهم ذاكر التداوير والتممات الحاوية والمحوية مثلا لنسبوه الى ما يكره وقيل انهم ورثوا علم ذلك عن أسلافهم السامعين له ممن يعتقدون صدقه كاسمعيل عليه السلام ويجوز أن يكونوا سمعوه من أهل الكتاب ولما لم يروه منافيا لما هم عليه اعتقدوه ويكفى في صحة التقرير هذا المقدار من العلم وتعقب بانه على هذا لا تنتظم المتعاطفات المقرر بها في سلك واحد من العلم والامر فيه سهل وقيل نزلوا منزلة العالمين به لظهور دليله وهو اخبار من دلت المعجزة على صدقه وفيه بعد وقيل الخطاب للناس مؤمنيهم ومشركيهم وغلب المؤمنون على غيرهم في التقرير المقتضى لسابقية العلم وهو كما ترى واختار بعض أن العطف على ما يقتضيه الانكار التقريرى فيكون الكلام في قوة قد جعلنا الارض الى آخره وبنينا فوقكم سبعا شدادا وهو حينئذ ابتداء اخبار منه عز وجل بالبناء المذكور فلا يقتضى سابقية علم وتعقب بأن العطف على الفعل المنفى بلم أوفق بالاستدلال بالمذكورات على صحة البعث كما لا يخفى فتأمل وتقديم الظرف على ...ول للتشويق اليه مع مراعاة الفواصل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أى أنشأنا وأبدعنا ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مشرقا متلألئا من وهجت النار اذا أضاءت أو بالغا في الحرارة من الوهج والمراد به الشمس والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السموات بالبناء ونصب سراجا على المفعولية ووهاجا على الوصفية له وجوز بعضهم أن يكونا مفعولين للجعل على أنه هنا مما يتعدى اليهما وتعقب بأنه مخالف للظاهر للتنكير فيهما وان قيل السراج الشمس وهى لا نحصارها في فرد كالمعرفة واختلف في موضع الجعل والمشهور أنه في السماء الرابعة ولم نر فيه أثرا سوى مافى البحر من عبد الله بن عمرو بن العاص قال الشمس في السماء الرابعة الينا ظهرها ولهبها يضطرم علوا والمذكور في كتب القوم أنهم جعلوا سبعة أفلاك للسيارات السبع على ترتيب خسف بعضها بعضا اقصاها لزحل والذى تحته المشترى ثم للمريخ والادنى للقمر والذى فوقه لعطارد ثم الزهرة اذ وجدوا القمر يكسف الست من السيارات وكثيرا من الثوابت المحاذية لطريقته في ممر البروج وعلى هذا الترتيب وجدوا الادنى يكسف الاعلى والثوابت تنكسف بالكل ويعلم الكاسف من المنكسف باختلاف اللون فأيهما ظهر لونه عند الكسف فهو كاسف وأيهما خفى لونه فهو منكسف وبقى الشك في أمر الشمس اذ لم يعرف انكساف شىء من الكواكب بها لاضمحلال نورها في ضيائها عند القرب منها ولا انكسافها بشىء من الكواكب غير القمر فذهب بعض القدماء الى أن فلكى الزهرة وعطارد فوق فلكها مستدلين عليه بأنهما لا يكسفانها كما يكسفها القمر وهو باطل اذ من شرط كسف السافل العالى أن يكونا معا والبصر على خط واحد مستقيم والالم يكسفه كما في أكثر اجتماعات القمر واذا كان كذلك فمن المحتمل أن يكون مدارهما بين الشمس والابصار ولان جرميهما عندهم صغيران غير مظلمين كجرم القمر حتى يكسفاها ولانه اذا كسف القمر من جرم الشمس ما مساحته مساوية لجرم أحد هذين الكوكبين أو اكثر لا يظهر المنكسف للابصار على ما نص عليه بطليموس في الاقتصاص وذهب بعض من تقادم عهدهم الى أنهما تحت فلك الشمس وان لم تكسف بهما استحسانا لما فى ذلك من حسن الترتيب وجودة

النظام على ما بين في موضعه ومال اليه بطليموس قال في المجسطي ونحن نرى ترتيب من تقادم عهده أقرب الى الاقناع لانه أشبه بالامر الطبيعي لتوسط الشمس بين ما يبعدعنها كل البعد وبين ما لا يبعدعنها الا يسيرا ثم قوى عزمه لما رأى بعد الشمس المعلوم من الارض مناسبا لهذا الموضع لانه لما وجد بين أبعد بعد القمر وأقرب قرب الشمس بعدا يمكن أن يوجد فيه فلكا الزهرة وعطارد وأبعادهما المختلفة قال في الاقتصاص مثل هذا الفضاء لا يحسن أن يترك عطلا ولا يحسن أن يكون فيه المريخ فضلا عن غيره فليكونا فيه وتأكد هذا عند بعض المتأخرين بانه شوهدت الزهرة على قرص الشمس في وقتين بينهما نيف وعشرون سنة وكانت أول الحالين في ذروة التدوير وفي الثاني في أسفله ويبطل به ما ظن من كون عطارد والزهرة مع الشمس في كرة ومركز تدويرهما لاستحالة أن ترى الزهرة في الذروة على هذا الوجه وهذه أمور ضعيفة بعضها خطابي اقناعي وبعضها مبين ما فيه في محله وقد زعم بعض الناس أنه كما وجد في وجه القمر محو فكذا في وجه الشمس فوق مركزها بقليل نقطة سوداء وأهل الارصاد اليوم على ما سمعنا من غير واحد جازمون بان في قرصها سوادا وعلامات مختلفة ولهم في ذلك كلام مذكور في كتبهم وعليه ففي تشبيهها بالسراج من الحسن ما فيه وعن بعضهم أن النور كخيمة عليها ورأيت في بعض كتبهم أنه ينشق من حوالى جرمها والكلام في مقدار جرمها وبعدها عن الارض عند كل من المتقدمين والمعاصرين من الفلاسفة مما لا حاجة لنا به في هذا المقام مع ما في ذلك من الاختلاف المفضي بيانه بما له وعليه الى مزيد تطويل

**﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾** هي السحائب على ما روى عن ابن عباس وأبي العالية والربيع والضحاك ولما كانت معصرة اسم مفعول لا معصرة اسم فاعل قيل انها جمع معصرة من أعصر على أن الهمزة فيه للحينونة أي حانت وشارفت أن تعصرها الرياح فتمطر والافعال يكون بهذا المعنى كثيرا كاجزر اذا حان وقت جزاره وأحصد اذا شارف وقت حصاده ومنه أعصرت الجارية اذا دنت أن تحيض قال أبو النجم العجلي

تمشى الهوينا مائلا خمارها ❁ قد عصرت أو قد دنا اعصارها

وجوز على تقدير كون الهمزة للحينونة أن يكون المعنى حان لها أن تمصر أي تغيث ومنه العاصر المغيث ولذا قال ابن كيسان سميت السحائب بذلك لانها تغيث فهي من العصرة كأنه في الاصل بمعنى حان أن تعصر بتخيل أن الدم يحصل منها بالعصر وقيل انها جمع لذلك أيضا الا أن الهمزة لصيرورة الفاعل ذا المأخذ كأيسر وأعسر وألحم أي صار ذا يسر وصار ذا عسر وصار ذا لحم وعن ابن عباس أيضا ومجاهد وقتادة أنها الرياح لانها تعصر السحاب فيمطر وفسرها بعضهم بالرياح ذوات الاعاصير على أن صيغة اسم الفاعل للنسبة الى الاعصار بالكسر وهي ريح تثير سحابا ذا رعد وبرق ويعتبر التجريد عليه على ما قيل والمازني اعتبر النسبة أيضا الا أنه قال المعصرات السحائب ذوات الاعاصير فانها لابد أن تمطر معها وأيد تفسيرها بالرياح بقراءة ابن الزبير وابن عباس وأخيه الفضل وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة بالمعصرات بباء السببية والآلية فانها ظاهرة في الرياح فان بها ينزل الماء من السحاب ولهذه القراءة جعل بعضهم من في قراءة الجمهور وتفسير المعصرات بالرياح للتعليل وذهب غير واحد الى أنها للتعليل ابتدائية فان السحاب كالمبدا الفاعل للانزال وتعقب بأن ورود من كذلك قليل وعن أبي الحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة أيضا أنها السموات وتعقب بأن السماء لا ينزل منها الماء بالعصر فقيل في تاويله ان الماء ينزل من السماء الى السحاب فكان السموات يعصرن أي يحملن على عصر الرياح السحاب ويمكن منه وتعقب بانه مع بعده انما يتم لو جاء المعصر بمعنى العاصر أي الحامل على العصر ولو قيل المراد بالمعصر الذي حان له أن يعصر كان تكلفا

على تكلف والذى في الكشف أن الهمزة على التاويل المذكور للتعدية فتدبر ولا تغفل ﴿ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ أى منصبا بكثرة يقال ثج الماء اذا سال بكثرة وثجه أى أساله فثج ورد لازما ومتعديا واختير جعل مافي النظم الكريم من اللازم لانه الاكثر في الاستعمال وجعله الزجاج من المتعدى كان الماء المنزل لكثرته يصب نفسه ومن المتعدى مافي قوله صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الحج العج والثج أى رفع الصوت بالتلبية وصب ماء الهدى والمراد أفضل أعمال الحج التلبية والنحر ولا يأبى الكثرة كون الماء من المعصرات وظاهره أنه بالعصر وهو لايحصل منه الا القليل لان ذلك غير مسلم ولو سلم فالقلة نسبية وقرأ الاعرج ثجاجا بجيم ثم حاء مهملة ومثاجج الماء مصابه ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أى بذلك الماء وهو على ظاهره عند السلف ومن اقتدى بهم وقالت الاشاعرة أى عنده ﴿ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ مايقتات به كالحنطة والشعير ويعتلف كالحشيش والتبن وتقديم الحب مع تأخره عن النبات في الاخراج لاصالته وشرفه لان غالبه غذاء الانسان ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة وهى كل بستان ذى شجر يستر باشجاره الارض من الجن وهو الستر وقال الفراء الجنة مافيه النخيل والفردوس مافيه الكرم وقد تسمى الاشجار الساترة جنة وعليه حمل قول زهير ✡ من النواضح تسقى جنة سحقا ✽ وهو المراد هنا وقوله تعالى ﴿ أَلْفَافًا ﴾ أى ملتفة تداخل بعضها ببعض قيل لا واحد له كالاوزاع والاخياف للجماعات المتفرقة المختلفة واختاره الزمخشرى وقال ابن قتيبة جمع لف بضم اللام جمع لفاء فهو جمع الجمع واستبعد بانه لم يجيء في نظائره ذلك فقد جاء خضر جمع خضراء وحمر جمع حمراء ولم يجيء اخضار جمع خضر ولا أحمار جمع حمر وجمع الجمع لا ينقاس ووجود نظيره في المفردات لايكفى كذا قيل وقال الكسائى جمع لفيف بمعنى ملفوف وفعيل يجمع على أفعال كشريف وأشراف وانما اختلف النحاة في كونه جمعا لفاعل وفى الكشاف لو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولا وجيها انتهى وانما يقدر حذف الزوائد وهو الذى يسميه النحاة في مثل ذلك ترخيما لان قياس جمع ملتفة ملتفات لا ألفاف واعترضه في الكشف فقال فيه انه لا نظير له لان تصغير الترخيم ثابت (١) أما جمعه فلا لكن قيل ان هذا غير مسلم فانه وقع في كلامهم ولم يتعرضوا له لقلته والحق أنه وجه متكلف وجمهور اللغويين على أنه جمع لف بالكسر وهو صفة مشبهة بمعنى ملفوف وفعل يجمع على أفعال باطراد كجذع وأجذاع وعن صاحب الاقليد أنه قال أنشدنى الحسن بن على الطوسى

جنة لف وعيش مغدق ✡ وندامى كلهم بيض زهر

وجوز في القاموس أن يكون جمع لف بالفتح هذا وفيما ذكر من أفعاله تعالى شأنه دلالة على صحة البعث وحقيته من أوجه ثلاثة على ماقيل الاول باعتبار قدرته عز وجل فان من قدر على انشاء تلك الامور البديعة من غير مثال يحتذيه ولاقانون ينتحيه كان على الاعادة أقدر وأقوى الثانى باعتبار علمه وحكمته فان من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة الى الخلق يستحيل حكمة أن لا يجعل لها عاقبة الثالث باعتبار نفس الفعل فان اليقظة بعد النوم انموذج للبعث بعد الموت يشاهده كل واحد وكذا اخراج الحب والنبات من الارض يعاين كل حين فكأنه قيل قد فعلنا أو ألم نفعل هذه الافعال الآفاقية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للايمان به فما لكم تخوضون فيه انكارا وتسألون عنه استهزاء وقوله تعالى ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ شروع في بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين متى هذا

«١» قوله أما جمعه فلا واللواقح والطوائح ليسا منه على ما قيل اه منه

الوعد ان كنتم صادقين ونوع تفصيل لكيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد اجمالا وقال بعض الاجلة انه لما اثبت سبحانه صحة البعث كان مظنة السؤال عن وقته فقيل ان الخ وأكد لانه مما ارتابوا فيه وليس بذاك أي أن يوم فصل الله تعالى شأنه بين الخلائق كان في علمه عز وجل ميقاتا وميعادا لبعث الاولين والآخرين وما يترتب عليه من الجزاء ثوابا وعقابا لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتاخر وقيل حدا توقت به الدنيا وتنتهي اليه أوحداً للخلائق ينتهون اليه لتمييز أحوالهم والاول أوفق بالمقام على أن الدنيا تنتهي على ماقيل عند النفخة الاولى وأياما كان فالمضى في كان باعتبار العلم وجوز ان يكون بمعنى يكون وعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أى النفخة الثانية ويوم بدل من يوم الفصل أو عطف بيان مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ولا ضير في تأخر الفصل عن النفخ فانه زمان ممتد يقع في مبدئه النفخ وفي بقيته الفصل ومباديه وآثاره وتقدم الكلام في الصور وقرأ أبو عياض في الصور بفتح الواو جمع صورة وقد مر الكلام في ذلك أيضا والفاء في قوله تعالى ﴿فَتَأْتُونَ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية سرعة الاتيان كما في قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فتحيون فتبعثون من قبوركم فتأتون الى الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلا ﴿أَفْوَاجًا﴾ أى أمما كل أمة بأمامها كما قال سبحانه يوم ندعو كل أناس بامامهم أو زمرا وجماعات مختلفة الاحوال متباينة الاوضاع حسب اختلاف الاعمال وتباينها واستدل لهذا بما اخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب أن معاذ بن جبل قال يارسول الله ماقول الله تعالى يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا فقال يامعاذ سألت عن عظيم من الامور ثم ارسل عينيه ثم قال عليه الصلاة والسلام عشرة أصناف قد ميزهم الله عز وجل من جماعة المسلمين فبدل صورهم فبعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسين أرجلهم فوق وجوههم أسفل يسحبون عليها وبعضهم عمي يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلون وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتنا من الجيف وبعضهم ملبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم فاما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس وأما الذين على صورة الخنازير فاكلة السحت واما المنكسون على وجوههم فاكلة الربا وأما العمى فالذين يجورون في الحكم وأما الصم البكم فالمعجبون باعمالهم وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف أقوالهم أعمالهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران وأما المصلبون على جذوع من نار فالساعون بالناس الى السلطان وأما الذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى من أموالهم وأما الذين يلبسون الجباب فاهل الكبر والخيلاء والفخر وهذا كما قال ابن حجر حديث موضوع وآثار الوضع لائحة عليه وعليه قيل لا بد من التغليب في قوله تعالى تأتون اذ لا يمكن الاتيان للمصلوب والمسحوب على الوجه ولا لمن قطعت يداه ورجلاه وتعقب بانه ليس بشيء فان أمور الآخرة لاتقاس على أمور الدنيا والقادر على البعث قادر على جعلهم ماشين بلا أيد وأرجل وأن تمشي بهم عمد النار التي صلبوا عليها مع أنه لا يلزم أن يأتوا بانفسهم لجواز أن تأتي بهم الزبانية ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ عطف على ينفخ على ما قيل وصيغة الماضي للدلالة على التحقق وعن الزمخشري أنه معطوف على فتأتون وليس بشرط أن يتوافقا في الزمان كما يظن من ليس بنحوى وأقره في الكشف وقال الشرط في حسنه أن يكون مقرا منا الحال أو يكون المضارع حكاية حال ماضية وما نحن فيه مضارع جيء به بلفظ الماضي تفخيما وتحقيقا لوقوعه فهو أقرب

قريب منه ولو جعل حالا على معنى فتأتون وقد فتحت السماء لكان وجها وقرأ الجمهور أى من عدا الكوفيين فتحت بالتشديد قيل وهو الانسب بقوله تعالى ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وفسر الفتح بالشق لقوله تعالى اذا السماء انشقت وقوله سبحانه اذا السماء انفطرت الى غير ذلك والقرآن يفسر بعضه بعضا وجاء الفتح بهذا المعنى كفتح الجسور وما ضاهاها ولعل نكتة التعبير به عنه الاشارة الى كمال قدرته تعالى حتى كان شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة وكان بمعنى صار ولدلالتها على الانتقال من حال الى أخرى وكون السماء بالشق لا تصير أبوابا حقيقة قالوا ان الكلام على التشبيه البليغ أى فصارت شقوقها لسعتها كالابواب أو فصارت من كثرة الشقوق كأن الكل أبواب أو بتقدير مضاف أى فصارت ذات أبواب وقيل الفتح على ظاهره والكلام بتقدير مضاف الى السماء أى فتحت أبواب السماء فصارت كان كلها أبواب ويجامع ذلك شقها فتشق وتفتح أبوابها وتعقب بأن شقها لنزول الملائكة كما قال تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا فاذا شققت لا يحتاج لفتح الابواب وأيضا فتح أبوابها ليس من خواص يوم الفصل وفيه بحث نعم ان الوجه الاول أولى وقيل المعنى بفتح مكان السماء بالكشط فتصير كلها طرقا لا يسدها شيء وفيه بعد وعلى ماتقدم في الآية رد على زاعمي امتناع الخرق على السماء وفيها على هذا رد لزاعمي كشطها كاهو المشهور عن الفلاسفة المتقدمين وان حقق الملا صدرا في الاسفار أن اساطينهم على خلاف ذلك والفلاسفة اليوم ينفون السماء المعروفة عند المسلمين ولم يأتوا بشيء تؤول له الآيات والاخبار الصحيحة في صفتها كما لا يخفى على الذكي المنصف ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أى في الجو على هيئتها بعد تفتتها وبعد قلعها من مقارها كما يعرب عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وأدمج فيه تشبيه الجبال بجبال السحاب في تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما ينطق به قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أى فصارت بعد تسييرها مثل سراب فترى بعد تفتتها وارتفاعها في الهواء كأنها جبال وليست بجبال بل غبار غليظ متراكم يرى من بعيد كأنه جبل كالسراب يرى كأنه بحر مثلا وليس به فالكلام على التشبيه البليغ والجامع ان كلا من الجبال والسراب يرى على شكل شيء وليس هو بذلك الشيء وجوز ان يكون وجه الشبه التخلخل اذ تكون بعد تسييرها غبارا منتشرا كما قال تعالى وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا والمستفاد من الازهار البديعة في علم الطبيعة لمحمد الهراوى أن السراب هواء تسخنت طبقته السفلى التى تلى الارض لتسخن الارض من حر الشمس فتخلخلت وصعد جزء منها الى ما فوقها من الطبقات فكان أكثف مما تحته وخرج بذلك التسخن عن موقعه الطبيعى من الارض ولانعكاس الاشعة الضوئية وانكسارها فيه على وجه مخصوص مبين في الكتاب المذكور مع انعكاس لون السماء يظن ماء وترى فيه صورة الشيء منقلبة وقد ترى فيه صور سائحة كقصور وعمد ومساكن جميلة مستغربة وأشباح سائرة تتغير هيئتها في كل لحظة وتنتقل عن محالها ثم تزول وما هى الا صور حاصلة من انعكاس صور مرئية بعيدة جدا أو متراكبة في طبقات الهواء المختلفة الكثافة فاعتبار التخلخل فقط في وجه الشبه لا يخلو عن نظر وأياما كان فهذا بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق فالله عز وجل يسير الجبال ويجعلها هباء منبثا ويسوى الارض يومئذ كما نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعى الذى هو اسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لا يكون الا بعد النفخة الثانية وأما اندكاك الجبال وانصداعها فعند النفخة الاولى وقيل ان تسييرها وصيرورتها

سرابا عند النفخة الاولى أيضا ويأباه ظاهر الآية نعم لو جعلت الجملة حالية أى فتأتون أفواجا وقد سيرت الجبال فكانت سرابا لكان ذلك محتملا والظاهر أنها تصير سرابا لتسوية الارض ولا يبعد أن يكون فيه حكم اخرى وقول بعضهم انها تجرى جريان الماء وتسيل سيلانه كالسراب فيزيد ذلك في اضطراب متعطشى المحشر وغلبة شوقهم الى الماء خلاف الظاهر ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ شروع في تفصيل أحكام الفصل الذى أضيف اليه اليوم اثر بيان هوله والمرصاد اسم مكان كالمضمار للموضع الذى تضمر فيه الخيل ومفعال يكون كذلك على ما صرح به الراغب والجوهرى وغيرهما كما يكون اسم آلة وصفة مشبهة للمبالغة والظاهر أنه حقيقة في الجميع أى موضع رصد وترقب ترصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم وقيل ترصد فيه خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها في مجازهم عليها وقيل ترصد فيه الملائكة عليهم السلام الطائفتين لتعذب (١) احداها وهي المؤمنة وتعذب الاخرى وهي الكافرة وجوز أن يكون صيغة مبالغة كمنحار أى مجدة في ترصد الكفرة لئلا يشذ منهم واحد أو مجدة في ترصد المؤمنين لئلا يتضرر أحد منهم من فيحها أو مجدة في ترصد الطائفتين على نحو ما سمعت آنفا واسناد ذلك اليها مجاز أو على سبيل التشبيه وفي البحر ان مرصادا معنى النسب أى ذات رصد وقد يفسر المرصاد بمطلق الطريق وهو أحد معانيه فيكون للطائفتين ومن هنا قال الحسن كما أخرج عنه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد في الآية لا يدخل الجنة احد حتى يجتاز النار وقال قتادة كما أخرج هؤلاء عنه أيضا اعلموا أنه لا سبيل الى الجنة حتى تقطع النار و قوله تعالى ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ أى المتجاوزين الحد في الطغيان متعلق بمضمر امانعت لمرصادا أى كائنا للطاغين واما حال من قوله تعالى ﴿مَآبًا﴾ قدم عليه لكونه نكرة ولو تأخر لكان صفة له أى كانت مرجعا ومأوى كائنا لهم يرجعون اليه ويأوون لا محالة وجوز أن يكون خبرا آخر لكانت أو متعلقا بمآبا أو بمرصادا وعليه قيل معنى مرصادا لهم معدة لهم من قولهم أرصدت له أى أعددت وكافأته بالخير أو بالشر ومآبا قيل بدل من مرصادا على جميع الاوجه بدل كل من كل وقيل هو خبر ثان لكانت أو صفة لمرصادا وللطاغين متعلق به أو حال منه على بعض التفاسير السابقة في كانت مرصادا فتأمل وقرأ أبو عمر والمنقرى وابن يعمر أن جهنم بفتح الهمزة بتقدير لام جر لتعليل قيام الساعة المفهوم من الكلام والمعنى كان ذلك لاقامة الجزاء وتعقب بانه ينبغى حينئذ أن يكون ان للمتقين أيضا بالفتح ومعطوفا على ما هنا لانه بكليهما يتم التعليل باقامة الجزاء الا أن يقال ترك العطف للاشارة الى استقلال كل من الجزاءين في استدعاء قيام الساعة وفيه نظر لانه بذلك يتم الجزاء وأما نفس اقامته فيكفى فى تعليلها ما ذكر على انه لو كان المراد فيما سبق كانت مرصادا للفريقين على ما سمعت لا يتسنى هذا الكلام أصلا وقوله تعالى ﴿لَابِثِينَ فِيهَا﴾ أى مقيمين في جهنم ملازمين لها حال مقدرة من المستكن في للطاغين وقرأ عبدالله وعلقمة وزيد بن على وابن وثاب وعمرو ابن شرحبيل وابن جبير وطلحة والاعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح لبثين بغير الف بعد اللام وفيه من المبالغة ما ليس في لابثين وقال أبو حيان ان فاعلا يدل على من وجد منه الفعل وفعلا يدل على من شأنه ذلك كحاذر وحذر وقوله تعالى ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف للبثهم وهو وكذا أحقب جمع حقب بالضم وبضمتين وهو على ما روى عن الحسن زمان غير محدود ونحوه تفسير بعض اللغويين له بالدهر وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قال الحقب الواحد ثمانون سنة وأخرج نحوه البزار عن أبى هريرة وابن جرير عن ابن عباس

---

(١) قوله لتعذب احداها وهي المؤمنة هكذا في خط المؤلف ولعل صوابه لتنقذ وانظره اه

وابن المنذر عن ابن عمر وروى عن جمع من السلف بيد انهم قالوا ان كل يوم منه أى هنا مقدار ألف سنة من سنى الدنيا وأخرج البزار وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر مرفوعا أنه بضع وثمانون سنة كل سنة ثلثمائة وستون يوما واليوم الف سنة مما تعدون وقيل أربعون سنة وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت فيه حديثا مرفوعا وقال بعض اللغويين سبعون الف سنة واختار غير واحد تفسيره بالدهر وأياما كان فالمعنى لابثين فيها احقابا متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر وافادة التتابع في الاستعمال بشهادة الاشتقاق فانه من الحقيبة وهى ما يشد خلف الراكب والمتتابعات يكون أحدها خلف الآخر فليس فى الآية مايدل على خروج الكفرة من النار وعدم خلودهم فيها لمكان فهم التتابع في الاستعمال وصيغة القلة لاتنافي عدم التناهي اذ لافرق بين تتابع الاحقاب الكثيرة الى مالا يتناهي وتتابع الاحقاب القليلة كذلك وقيل ان الصيغة هنا مشتركة بين القلة والكثرة اذ ليس للحقب جمع كثرة فليرد بها بمعونة المقام جمع الكثرة وتعقب بثبوت جمع الكثرة له وهو الحقب كما ذكر الراغب والذى رأيته في مفرداته ان الحقب أي بكسر الحاء وفتح القاف الحقبة المفسرة بثمانين عاما نعم قيل انه ينافيه ماورد انه يخرج أناس من أهل النار من النار ويقربون من الجنة حتى اذا استنشقوا ريحها ورأوا ما أعد الله تعالى لعباده المؤمنين فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لانصيب لهم فيها فيردون الى النار بحسرة ما رجع الاولون والآخرون بمثلها وتعقب بانه ان صح انماينافيه لو كان الخروج حقبا تاما أما لوكان في بعض اجزاء الحقب فلا لبقاء تتابع الاحقاب جملة سلمنا لكن هذا الاخراج الذى يستعقب الرد لزيادة التعذيب كاللبث في النار أشد والكلام من باب التغليب وليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ثم ان وجد أن في الآية مايقتضى الدلالة على التناهي والخروج من النار ولو بعد زمان طويل فهو مفهوم معارض بالمنطوق الصريح بخلافه كآيات الخلود وقوله تعالى وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم الى غير ذلك وان جعل قوله تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ حالا من المستكن في لابثين فيكون قيدا للبث فيحتمل ان يلبثوا فيها أحقابا غير ذائقين الاحميما وغساقا ثم يكون لهم بعد الاحقاب لبث على حال آخر من العذاب وكذا ان جعل أحقابا منصوبا بلايذوقون قيدا له الا أن فيه بعدا ومثله لوجعل لايذوقون فيها الخ صفة لاحقابا وضمير فيها لها لالجهنم لكنه أبعد من سابقه وقيل المراد بالطاغين مايقابل المتقين فيشمل العصاة والتناهي بالنظر الى المجموع وهو كما ترى وقول مقاتل ان ذلك منسوخ بقوله تعالى فذوقوا فلن نزيدكم الاعذابا فاسد كما لايخفى وجوز أن يكون احقابا جمع حقب كحذر من حقب الرجل اذا اخطأه الرزق وحقب العام اذا قل مطره وخيره والمراد محرومين من النعيم وهو كناية عن كونهم معاقبين فيكون حالا من ضمير لابثين وقوله تعالى لايذوقون صفة كاشفة أو جملة مفسرة لامحل لها من الاعراب وهو على ماذكر أولا جملة مبتدأة خبر عنهم والمراد بالبرد مايروحهم وينفس عنهم حر النار فلا ينافي أنهم قد يعذبون بالزمهرير والشراب معروف والحميم الماء الشديد الحرارة والغساق ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد أى لايذوقون فيها شيئا ما من روح ينفس عنهم حر النار ولا من شراب يسكن عطشهم لكن يذوقون ماء حارا وصديدا وفى الحديث ان الرجل منهم اذا أدنى ذلك من فيه سقط فروة وجهه حتى يبقى عظاما تقعقع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان البرد الشراب البارد المستلذ ومنه قول حسان بن ثابت

يسقون من ورد البريص عليهم * برد (١) يصفق بالرحيق السلسل

(١) قوله برداً النحويون ينشدون بيت حسان بردى بفتح الراء و الدال بعدها ألف التأنيث وهو نهر بدمشق اه منه

وقول الآخر أماني من سعدى حسان كأنما * سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

فيكون ولا شرابا من نفي العام بعد الخاص وقال أبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ النحوي البرد النوم والعرب تسميه بذلك لانه يبرد سورة العطش ومن كلامهم منع البرد البرد وقال الشاعر

فلو شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

أي وهو مجاز في ذلك عند بعض ونقل في البحر عن كتاب اللغات في القرآن أن البرد هو النوم بلغة هذيل وعن ابن عباس وأبي العالية الغساق الزمهرير وهو على ما قيل مستثنى من بردا الا انه أخر لتوافق رؤس الآي وفلا تغفل وقرأ غير واحد من السبعة غساقا بالتخفيف ﴿جَزَاءً﴾ أي جوزوا بذلك جزاء فجزاء مفعول مطلق منصوب بفعل مقدر وجعله خبرا آخر لكانت ليس بشيء وقوله تعالى ﴿وِفَاقًا﴾ مصدر وافقه صفة له بتقدير مضاف أي ذا وفاق أو بتاويله باسم الفاعل أو لقصد المبالغة على ما عرف في أمثاله وأياما كان فالمراد جزاء موافقا لاعمالهم على معنى أنه بقدرها في الشدة والضعف بحسب استحقاقهم كما يقتضيه عدله وحكمته تعالى والجملة من الفعل المقدر ومعموله جملة حالية أو مستأنفة وجوز أن يكون وفاقا مصدرا منصوبا بفعل مقدر أيضا أي وافقها وفاقا وهذه الجملة في موضع الصفة لجزاء وقال الفراء هو جمع وفق ولا يخفى ما في جعله حينئذ صفة لجزاء من الخفاء وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة وفاقا بكسر الواو وتشديد الفاء من وفقه يفقه كورثه يرثه وجده موافقا لحاله وفي الكشف وفقه بمعنى وافقه وليس وصف الجزاء به وصفا بحال صاحبه كما لا يخفى وحكى ابن القوطية وفق أمره أي حسن وليس المعنى عليه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تعليل لاستحقاق العذاب المذكور أي كانوا لا يخافون أن يحاسبوا باعمالهم ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الناطقة بذلك أو به وبغيره مما يجب الايمان به ﴿كِذَّابًا﴾ أي تكذيبا مفرطا وفعال بمعنى تفعيل في مصدر فعل مطرد شائع في كلام فصحاء العرب وعن الفراء انه لغة يمانية فصيحة وقال لي اعرابي على جبل المروة يستفتيني آلحلق أحب اليك أم القصار ومن تلك اللغة قول الشاعر

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي * وعن حاجة قضاؤها من شفائيا .

وقال ابن مالك في التسهيل انه قليل وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وعوف الاعرابي وأبو رجاء والاعمش وعيسى بخلاف عنه في التخفيف قال صاحب اللوامح وذلك لغة اليمن يجعلون مصدر كذب مخففا كذابا بالتخفيف مثل كتب كتابا فكذابا بمعنى كذبا وعليه قول الاعشى

فصدقتها وكذبتها * والمرء ينفعه كذابه

والكلام هنا عليه من باب أنبتكم من الارض نباتا ففعله الثلاثي أما مقدر أي كذبوا بآياتنا وكذبوا كذابا أو هو مصدر للفعل المذكور باعتبار تضمنه معنى كذب الثلاثي فان تكذيبهم الحق الصريح يستلزم أنهم كاذبون وأياما كان يدل على كذبهم في تكذيبهم وجوز أن يكون بمعنى مكاذبة كقتال بمعنى مقاتله فهو من باب المفاعلة على معنى ان كلا منهم ومن المسلمين اعتقد كذب الآخر بتنزيل ترك الاعتقاد منزلة الفعل لا على معنى ان كلا كذب الآخر حقيقة ويجوز ان تكون المفاعلة مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم عن الجد والاجتهاد في الفعل ويحتمل الاستعارة فانهم كانوا مبالغين في الكذب مبالغة المغالبين فيه وعلى المعنيين كونه بمعنى الكذب وكونه بمعنى المكاذبة يجوز أن يكون حالا بمعنى كاذبين أو مكاذبين على اعتبار المشاركة وعدم اعتبارها وقرأ عمر بن عبد العزيز والماجشون كذابا بضم الكاف وتشديد الذال وخرج على أنه جمع كاذب كفساق جمع فاسق فيكون حالا أيضا وكذبوا في حال كذبهم نظير اذا جاء حين يأتي على ما قيل في قول طرفة

اذا جاء مالا بد منه فرحبا * به حين يأتي لا كذاب ولا علل

وفيه بحث ظاهر وجوز أن يكون مفردا صيغة مبالغة ككبار وحسان فيكون صفة لمصدر محذوف أى تكذيبا كذابا فيفيد المبالغة والدلالة على الافراط في الكذب لانه كليل أليل وظلام مظلم والاسناد فيه مجازي ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الاشياء التي من جملتها أعمالهم وقال أبو حيان أى كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب فهو عام مخصوص وانتصابه بمضمر يفسره ﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ أى حفظناه وضبطناه وقرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء ﴿ كِتَابًا ﴾ مصدر مؤكد لاحصيناه فان الاحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط فاما أن يؤول أحصيناه بكتبناه أو كتابا باحصاء وجوز الاحتباك على الحذفين من الطرفين أو حال بمعنى مكتوبا في اللوح أو صحف الحفظة والظاهر أن الكلام على حقيقته وقال بعضهم الظاهر أنه تمثيل لصورة ضبط الاشياء في علمه تعالى بضبط المحصي المجد المتقن للضبط بالكتابة والا فهو عز وجل مستغن عن الضبط بالكتابة وهذا التمثيل لتفهيمنا والا فالانضباط في علمه تعالى أجل وأعلى من أن يمثل بشيء والمشهور عند أهل السنة ماقدمنا وليس ذلك للاحتياج وانما هو لحكم تقصر عنها العقول والجملة اعتراض لتأكيد الوعيد السابق بان ذلك كائن لامحالة لاحق بهم لان معاصيهم مضبوطة مكتوبة يكفحون بها يوم الجزاء وقيل لتأكيد كفرهم وتكذيبهم بالآيات بانهما محفوظان للجزاء وليس بذاك وقال البعض الاوجه عندي ان كل شيء منصوب بالعطف على اسم ان في انهم كانوا لا يرجون حسابا واحصيناه كتابا عطف على خبره والرفع على العطف على محل اسم ان والجمل بيان لكون الجزاء المذكور موافقا لاعمالهم لان الجزاء الموافق انما يكون لصدور أعمال موجبة له عنهم وضبطها وعدم فوتها على المجازي فالجملتان الاوليان لافادة صدور الموجب وهو الكفر المعبر عنه بعدم رجاء الحساب والتكذيب بالآيات لما ان ذلك كالعلم فيه والاخيرة لافادة الضبط وعدم الفوت أي مع دماج الاشارة الى باقي المعاصي فيها وليست اعتراضا انتهى ولايخفى مافيه من التكلف ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وتسبب الذوق والامر به في غاية الظهور وقيل الاظهر انه مرتبط بقوله تعالى لايذوقون فيها بردا الخ أي اذا ذاقوا الحميم والغساق فيقال لهم ذوقوا فلن نزيدكم الخ وحينئذ الجمل بينهما اعتراضية وفيه أنه في غاية البعد مع ما فيه من كثرة الاعتراض ومجيئه على طريق الالتفات للمبالغة لتقدير احضارهم وقت الامر ليخاطبوا بالتقريع والتوبيخ وهو أعظم في الاهانة والتحقير ولو قدر القول فيه لم يكن هناك التفات وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن الحسن قال سألت أبابرزة الاسلمي عن أشد آية في كتاب الله تعالى على أهل النار فقال قول الله تعالى فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا ووجه الاشدية على ما قيل انه تقريع في يوم الفصل وغضب من أرحم الراحمين وتأييس لهم مع ما في لن أي على القول بافادتها التأبيد من أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة وقيل يحتمل أن يكون المراد أنه أشد حجج القرآن على أهل النار فانه اذا بلغهم في الدنيا هذا الوعيد ولم يخافوا منه فقد قبلوا العذاب الابدي في مقابلة الكفر فلا عذر لهم يوم القيامة في الحكم عليهم بخلود النار وفيه من البعد مافيه واستشكل أمر زيادة العذاب بمنافاتها كون الجزء موافقا للاعمال وأجيب بانها لحفظ الاصل اذ لولاها لألفوا ماأصابهم من العذاب أول مرة ولم يتألموا به وهو كما ترى وقيل ان العذاب لما كان للكفر والمعاصي وهي متزايدة في القبح في كل آن فالكفر مثلا في الزمن الثاني أقبح منه في الزمن الاول وهكذا وعلم الله تعالى منهم لسوء استعدادهم استمرارهم على ذلك اقتضى ذلك زيادة العذاب وشدته يوما فيوما وقيل

لما كان كفرهم أعظم كفر اقتضى أشد عذاب والعذاب المزاد يوما فيوما من أشد العذاب وقيل غير ذلك فليتأمل ﴿ انَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ شروع في بيان محاسن احوال المؤمنين أثر بيان سوء أحوال الكافرين ومفازا مصدر ميمي او اسم مكان أي ان للذين يتقون عمل الكفر فوزا وظفرا بمساعيهم أوموضع فوز وقيل نجاة مما فيه أولئك أوموضع نجاة ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ بدل اشتمال من مفازا على الاول وبدل البعض على الثاني والرابط مقدر وتقديره حدائق فيه أوهي في محله أونحو ذلك وجوز ان يكون بدل كل على الادعاء أومنصوبا باعني مقدراً وهو جمع حديقة وهي بستان فيها أنواع الشجر المثمر زاد بعضهم والرياحين والزهر وقال الراغب قطعة من الارض ذات ماء سميت بذلك تشبيها بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها وكانه أراد ذات ماء وشجر ﴿ وأَعْنَاباً ﴾ جمع عنب ويقال للكرم نفسه ولثمرته والمتبادر عطفه على حدائق قبله وهو بعض منها اذا أريد به الكروم وبها الاشجار وموضعها وخص بالذكر اعتناء به وأما ان أريد به الكروم وبها الموضع فقط فلا ويتعين الاشتمال كما اذا أريد به ثمرات الكروم وجوز أن يكون هو وكذا ما بعد عطفا على مفازا ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير ويكون ذلك في سن البلوغ وأحسن التسوية ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أي لدات ينشأن معا تشبيها في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر أو لوقوعهن معا على التراب أي الارض وفي بعض التفاسير نساء الجنة كلهن بنات ست عشرة سنة ورجالهن أبناء ثلاث وثلاثين ﴿ وكَأْساً دِهَاقاً ﴾ أي مترعة يقال دهق فلان الحوض وأدهقه أي ملأه وروى عن ابن عباس أنه فسره بذلك وأنشد قول الشاعر

أتانا عامر يبغي قرانا ✡ فاترعنا له كأسا دهاقا

وفي البحر الدهاق الملأى مأخوذ من الدهق وهو ضغط الشيء وشده باليد كانه لامتلائه انضغط وعن مجاهد وجماعة تفسيره بالمتتابعة وصحح الحاكم عن ابن عباس مارواه غير واحد انه قال هي الممتلئة المترعة المتتابعة وربما سمعت العباس يقول ياغلام اسقنا وأدهق لنا وأخرج ابن جرير عن عكرمة انه قال أي صافية ولا يخلو عن كدر والجمهور على الاول ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة وقيل في الكاس وجعلت الفاء للسببية ﴿ لَغْواً ﴾ هو مالا يعتد به من الكلام وهو على ما قال الراغب الذي يورد لاعن روية وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا وكذا مالا يعتد به مطلقا ﴿ ولاَ كِذَّاباً ﴾ أي تكذيبا وقريء بالتخفيف أي كذابا أو مكاذبة وقد تضمنت هذه المذكورات أنواعا من اللذات الحسية كما لا يخفى ﴿ جَزَآءً مِن رَّبِّكَ ﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى ان للمتقين مفازا فانه في قوة ان يقال جازى المتقين بمفازا جزاء كائنا من ربك والتعرض لعنوان الربوبية للاشارة الى ان ذلك حصل بتربيته وارشاده تعالى واضافة الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام دونهم لتشريفه صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل لم يقل من ربهم لئلا يحمله المشركون على أصنامهم وهو بعيد جدا ويعلم مما ذكرنا وجه ترك من ربك فيما تقدم من قوله تعالى جزاء وفاقا وعدم التعرض هناك لنسبة الجزاء اليه تعالى بعنوان آخر قيل من باب الالهم ان الخير بيديك والشر ليس اليك وقوله تعالى ﴿ عَطَآءً ﴾ أي تفضلا واحسانا منه عز وجل اذ لا يجب عليه سبحانه شيء بدل من جزاء فمعنى كونه جزاء انه كذلك بمقتضى وعده جل وعلا وجوز أن يكون نصبا بجزاء نصب المفعول به وتعقبه أبو حيان بان جزاء مصدر مؤكد لمضمون الجملة والمصدر المؤكد لا يعمل بلا خلاف نعلمه عند النحاة لانه لا ينحل لفعل وحرف مصدري ورد بان ذلك اذا كان الناصب للمفعول المطلق مذكورا أما

اذا حذف مطلقا ففيه خلاف هل هو العامل أو الفعل وقال الشهاب الحق ما قال أبو حيان لان المذكور هنا هو المصدر المؤكد لنفسه أو لغيره والذى اختلف فيه النحاة هو المصدر الآتى بدلا من اللفظ بفعله ✡ كندلا زريق المال ندل الثعالب ✽ وقوله

ياقابل التوب غفرانا مآثم قد ✽ اسلفتها انا منها خائف وجل

فليعرف وقوله تعالى ﴿ حِسَابًا ﴾ صفة عطاء بمعنى كافيا على أنه مصدر أقيم مقام الوصف أو بولغ فيه أو هو على تقدير مضاف وهو مأخوذ من قولهم احسبه الشيء اذا كفاه حتى قال حسبي وقيل على حسب أعمالهم أى مقسطا على قدرها وروى ذلك عن مجاهد وكان المراد مقسطا بعد التضعيف على ذلك فيندفع ماقيل أنه غير مناسب لتضعيف الحسنات ولذا لم يقل وفاقا كما في السابق ودفع أيضا بأن هذا بيان لما هو الاصل لا للجزاء مطلقا وقيل المعنى عطاء مفروغا عن حسابه لا كنعم الدنيا وتعقب بأنه بعيد عن اللفظ مع ما فيه من الايهام وقرأ ابن قطيب حسابا بفتح الحاء وشد السين قال ابن جنى بنى فعالا من أفعل كدراك من ادرك فمعناه محسبا أى كافيا ومنع بعضهم مجيء فعالا من الافعال ودراك من درك فليحرر وقرأ شريح بن يزيد الحمصى وأبو البرهسم بكسر الحاء وشد السين على أن مصدر ككذاب وقرأ ابن عباس حسنا بالنون من الحسن وحكى المهدوى حسبا بفتح الحاء وسكون السين والباء الموحدة نحو قولك حسبك كذا أى كافيك ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا بيْنَهُمَا ﴾ بدل من لفظ ربك وفي ابداله تعظيم لا يخفى وايماء على ما قيل الى ما روى في كتب الصوفية من الحديث القدسى لولاك لما خلقت الافلاك وقوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ صفة لربك أو لرب السموات على الاصح عند المحققين من جواز وصف المضاف الى ذى اللام بالمعرف بها وجوز أن يكون عطف بيان وهل يكون بدلا من لفظ ربك قال في البحر فيه نظر لان الظاهر أن البدل لا يتكرر وقوله تعالى ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ مِنهُ خِطَابًا ﴾ استئناف مقرر لما افادته الربوبية العامة من غاية العظمة واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لاحد قدرة عليه والقراءة كذلك مروية عن عبد الله وابن أبى اسحق والاعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم وقرأ الاعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان برفع الاسمين فقيل على أنهما خبران لمبتدا مضمر أى هو رب السموات الخ وقيل الاول هو الخبر والثانى صفته أو عطف بيان وقيل الاول مبتدأ والثانى خبره ولا يملكون منه خبر آخر أو هو الخبر والثانى نعت للاول أو عطف بيان وقيل لا يملكون حال لازمة وقيل الاول مبتدا أول والثانى مبتدأ ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر للاول وحصل الربط بتكرير المبتدا بمعناه على رأى من يقول به واختير أن يكون كلاهما مرفوعا على المدح أو يكون الثانى صفة للاول ولا يملكون استئنافا على حاله لما في ذلك من توافق القراءتين معنى وقرأ الاخوان والحسن وابن وثاب والاعمش وابن محيصن بخلاف عنهما بجر الاول على ما سمعت ورفع الثانى على الابتداء والخبر مابعده أو على أنه خبر لمبتدا مضمر وما بعده استئناف أو خبر ثان وضمير لا يملكون لاهل السموات والارض ومنه بيان لخطابا مقدم عليه أى لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم كما ينبيء عنه لفظ الملك خطابا ما في شيء ما والمراد نفى قدرتهم على أن يخاطبوه عز وجل بشيء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير اذنه تعالى على أبلغ وجه وآكده وجوز أن يكون منه صلة يملكون ومن ابتدائية والمعنى لا يملكون من الله تعالى خطابا واحدا أى لا يملكهم الله تعالى ذلك فلا يكون في أيديهم خطاب يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون في الثواب أو ينقصون من العقاب وهذا كما تقول ملكت منه درهما وهو أقل تكلفا وأظهر من جعل منه حالا من خطابا مقدما واضمار مضاف أى خطابا

من خطاب الله تعالى فيكون المعنى لايملكون خطابا واحدامن جملة مايخاطب به الله تعالى ويأمر به في أمر الثواب والعقاب وظاهر كلام البيضاوى حمل الخطاب على خطاب الاعتراض عليه سبحانه في ثواب أو عقاب ومنه على ماسمعت منـا أولا أى لايملكون خطابه تعـالى والاعتراض عليه سبحانه في ثواب أو عقاب لانهم مملوكون له عز وجل على الاطلاق فلا يستحقون عليـه سبحانه اعتراضا أصلا وأياما كان فالآية لاتصلح دليلا على نفى الشفاعة باذنه عز وجل وعن عطاء عن ابن عبـاس ان ضمير لا يملكون للمشركين وعدم الصـلاحية عليه أظهر ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ قيل الروح خلق أعظم من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وقيل هو ملك ماخلق الله عزوجل بعد العرش خلقاأعظم منه عن ابن عباس انهاذا كان يوم القيامة قام هووحده صفا والملائكة صفا وعن الضحاك انه لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة عليهم السلام وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال الروح جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل وفي رواية يأكلون الطعام ثم قرأ يوم يقوم الروح والملائكة صفا وقال هؤلاء جند وهؤلاء جند وروى القول بهذا عن مجاهد وأبى صالح وقيل هم أشراف الملائكة وقيل هم حفظة الملائكة وقيل ملك موكل على الارواح قال في الاحياء الملك الذى يقال له الروح هو الذى يولج الارواح في الاجسام فانه يتنفس فيكون في كل نفس من أنفاسه روح في جسم وهو حق يشاهده أرباب القلوب ببصائرهم وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك أنه جبريل عليه السلام وهو قول لابن عباس فقد أخرج هو عنه أيضا أنه قال ان جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار ترعـد فرائصه فرقا من عذاب الله تعالى يقول سبحانك لا اله الا أنت ما عبدناك حق عبادتك وان ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب أما سمعت قول الله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا وفي رواية البيهقى في الاسماء والصفات عنه أن المراد به أرواح الناس وان قيامها مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الى الاجساد وهو خلاف الظاهر في الآية جدا ولعله لا يصح عن الحبر وقيل القرآن وقيامه مجاز عن ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع مالا يخفى ولم يصح عندى فيه هنا شىء ويوم ظرف للايملكون وصفا حال أى مصطفين قيل هما صفان الروح صف واحد أو متعـدد والملائكة صف آخـر وقيل صفوف وهو الاوفق لقوله تعالى والملك صفا صفا وقيل يوم يقوم الروح والملائكة الكل صفا واحداً وجوز أن يكون ظرفا لقوله تعالى ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ بدل من ضمير لا يتـكلمون وهو عائد الى أهـل السموات والارض الذين من جملتهم الروح والملائـكة وذكر قيامهم مصطفين لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عز وجل وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الـكلام من مطلع السورة الكريمة الى مقطعها والجملة استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لا يملكون الخ ومؤكد له على معنى أن أهل السموات والارض اذا لم يقدروا حينئذ أن يتكلموا بشىء من جنس الكلام الا من اذن الله تعالى له منهم في التكلم مطلقا وقال ذلك المأذون له بعد الاذن في مطلق التكلم قولا صوابا أى حقا من الشفاعة لمن ارتضى فكيف يملكون خطاب رب العزة جل جلاله مع كونه أخص من مطلق الكلام وأعز منه مراماً وجوز أن يكون ضمير لا يتكلمون الى الروح والملائكة والـكلام مقرر لمضمون قوله تعالى لا يملكون الخ أيضا لكن على معنى ان الروح والملائـكة مع كونهم أفضل الخلائق وأقربهم من الله تعالى اذا لم يقـدروا أن يتكلموا بما هو صواب من الشفاعة لمن ارتضى الا باذنه فكيف يملكه غـيرهم وذكره بعض أهل السنة فتعقب بأنه مبنى على مذهب الاعتزال من كون الملائكة عليهم السـلام أفضل من البشر مطلقاً

وأنت تعلم ان من أهل السنة أيضا من ذهب الى هذا كابى عبد الله الحليمى والقاضى أبى بكر الباقلانى والامام الرازى ونسب الى القاضى البيضاوى وكلامه في التفسير هنا لا يخلو عن اغلاق وتصدى من تصدى لتوجيهه وأطالوا فى ذلك على ان الخلاف في أفضليتهم بمعنى كثرة الثواب وما يترتب عليها من كونهم أكرم على الله تعالى وأحبهم اليه سبحانه لا بمعنى قرب المنزلة ودخول حظائر القدس ورفع ستارة الملكوت بالاطلاع على ما غاب عنا والمناسبة في النزاهة وقلة الوسائط ونحو ذلك فانهم بهذا الاعتبار أفضل بلا خلاف وكلام ذلك البعض يحتمل أن يكون مبنيا عليه وهذا كما نشاهده من حال خدام الملك وخاصة حرمه فانهم أقرب اليه من وزرائه والخارجين من أقربائه وليسوا عنده بمرتبة واحدة وان زادوا في التبسط والدلال عليه وعن ابن عباس ان ضمير لايتكلمون للناس وجوز أن يكون الامن أذن الخ منصوبا على أصل الاستثناء والمعنى لايتكلمون الافي حق شخص أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص في الدنيا صوابا أى حقا هو التوحيد وقول لااله الا الله كما روى عن ابن عباس وعكرمة وعليه قيل يجوز أن يكون قال صوابا في موضع الحال ممن بتقدير قد أو بدونه لاعطفا على اذن ومن الناس من جوز الحالية على الوجه الاول أيضا لكن من ضمير يتكلمون باعتبار كل واحد أو باعتبار المجموع وظن ان قول بعضهم المعنى لايتكلمون بالصواب الا باذنه لا يتم بدون ذلك وفيه ما فيه وقيل جملة لايتكلمون حال من الروح والملائكة أو من ضميرهم في صفا والجمهور على ماتقدم واظهار الرحمن في موقع الاضمار للايذان بأن مناط الاذن هو الرحمة البالغة لاان أحدا يستحقه عليه سبحانه وتعالى كما ان ذكره فيما تقدم للاشارة الى أن الرحمة مناط تربيته عز وجل ﴿ذَٰلِكَ﴾ اشارة الى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو درجته وبعد منزلته في الهول والفخامة ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿الْيَوْمُ﴾ الموصوف بقوله سبحانه ﴿الْحَقُّ﴾ أو هو الخبر واليوم بدل أو عطف بيان والمراد بالحق الثابت المتحقق أى ذلك اليوم الثابت الكائن لا محالة والجملة مؤكدة لما قبل ولذا لم تعطف والفاء في قوله عز وجل ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف دل عليه الجزاء والى ربه متعلق بمآبا قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل كانه قيل واذا كان الامر كما ذكر من تحقق الامر المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعا الى ثواب ربه الذى ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالايمان والطاعة وقال قتادة فيما رواه عنه عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر مآبا أى سبيلا وتعلق الجار به لما فيه من معنى الافضاء والايصال والاول أظهر وتقدير المضاف أعنى الثواب قيل لاستحالة الرجوع الى ذاته عز وجل وقيل لان رجوع كل أحد الى ربه سبحانه ليس بمشيئته اذ لا بد منه شاء أم لا والمعلق بالمشيئة الرجوع الى ثوابه تعالى فان العبد مختار فى الايمان والطاعة ولا ثواب بدونهما وقيل لتقدم قوله تعالى للطاغين مآبا فان لهم مرجعا لله تعالى أيضا لكن للعقاب لا للثواب ولكل وجهة ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ﴾ أى بما ذكر في السورة من الآيات الناطقة بالبعث بما فيه وما بعده من الدواهي أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن العظيم ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق اتيانه فقد قيل ما أبعد ما فات وما اقرب ما هو آت أو لانه قريب بالنسبة اليه عز وجل أو يقال البرزخ داخل فى الآخرة ومبدؤه الموت وهو قريب حقيقة كما لا يخفى على من عرف القرب والبعد وعن قتادة هو عقوبة الذنب لانه أقرب العذابين وعن مقاتل هو قتل قريش يوم بدر وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فان الظاهر أنه

ظرف لمضمر هو صفة عذابا أى عذابا كائنا يوم الخ وليس ذلك اليوم الا يوم القيامة وكذا على ما قيل من أنه بدل من عذابا أو ظرف لقريبا وعلى هذا الاخير قيل لا حاجة الى توجيه القرب لان العذاب في ذلك اليوم قريب لا فاصل بينه وبين المرء ونظر فيه بان الظاهر جعل المنذر به قريبا في وقت الانذار لانه المناسب للتهديد والوعيد اذ لا فائدة في ذكر قربه منهم يوم القيامة فاذا تعلق به فالمراد بيان قرب اليوم نفسه فتأمل والظاهر أن المرء عام للمؤمن والكافر وما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف والمراد يوم يشاهد المكلف المؤمن والكافر ما قدمه من خير أو شر وجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بقدمت اى ينظر أى شيء قدمت يداه والجملة معلق عنها لان النظر طريق العلم والكلام في قوة ينظر جواب ماقدمت يداه وفي الكلام على ماذكره العلامة التفتازانى تغليب ماوقع بوجه مخصوص على ماوقع بغير هذا الوجه حيث ذكر اليدان لان اكثر الاعمال تزاول بهما فجعل الجميع كالواقع بهما تغليبا وقرأ ابن أبى اسحق المرء بضم الميم وضعفها أبو حاتم ولا ينبغى أن تضعف لانها لغة بعض العرب يتبعون حركة الهمزة فيقولون مرء ومرأ ومرء على حسب الاعراب ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ تخصيص لاحد الفريقين اللذين تناولهما المرء فيما قبل منه بالذكر وخص قول الكافر دون المؤمن لدلالة قوله على غاية الخيبة ونهاية التحسر ودلالة حذف قول المؤمنين على غاية التبجح ونهاية الفرح والسرور وقال عطاء المرء هنا الكافر لقوله تعالى انا انذرناكم وكان الظاهر عليه الضمير فيما بعد الا انه وضع الظاهر موضعه لزيادة الذم وفيه ان تناول الفريقين هو المطابق لما سبق من صف يوم مفصل لما اشتمل على حالهما وهو الوجه لقوله تعالى فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا وانا انذرناكم لا يخص الكافر لان الانذار عام للفريقين أيضا فلا دلالة على الاختصاص وقال ابن عباس وقتادة والحسن المراد به المؤمن قال الامام دل عليه قول الكافر فلما كان هذا بيانا لحال الكافر وجب أن يكون الاول بيانا لحال المؤمن ولا يخفى مافيه من الضعف كاستدلال الرياشى بالآية على أن المرء لا يطلق الا على المؤمن وأراد الكافر بقوله هذا ليتنى كنت ترابا في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أو ليتنى كنت ترابا في هذا اليوم فلم أبعث وعن ابن عمر وأبى هريرة ومجاهد ان الله تعالى يحشر البهائم فيقتص لبعضها من بعض ثم يقول سبحانه لها كونى ترابا فيعود جميعها ترابا فاذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله والى حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ذهب الجمهور وسيأتى الكلام في ذلك في سورة التكوير ان شاء الله تعالى وقيل الكافر في الآية ابليس عليه اللعنة لما شاهد آدم عليه الصلاة والسلام ونسله المؤمنين ومالهم من الثواب تمنى أن يكون ترابا لانه احتقره لما قال خلقتنى من نار وخلقته من طين وهو بعيد عن السياق وان كان حسنا والتراب على جميع ما ذكر بمعناه المعروف والكلام على ظاهره وحقيقته وجوز لا سيما على الاخير أن يكون المراد بقول ليتنى كنت في الدنيا متواضعا لطاعة الله تعالى لا جبارا ولا متكبرا والمعول عليه ما تقدم كما لا يخفى

## سورة «عَمَّ» مكية وتسمى سورة «النبأ» وهي أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ .

[٢] ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ .

[٣] ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ .

[٤] ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ .

[٥] ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿عم يتساءلون﴾؟ «عم» لفظ أستفهام ولذلك سقطت منها ألف «ما»، ليتميز الخبر عن الاستفهام. وكذلك (فيم، ومم) إذا أستفهمت. والمعنى عن أي شيء

(١) في نسخة: تمكن من السجود. (٢) كذا في أحكام القرآن لابن العربي طبعة السعادة.

يسأل بعضهم بعضاً. وقال الزجاج: أصل «عَمَّ» عن ما فأدغمت النون في الميم، لأنها تشاركها في الغُنّة. والضمير في «يتساءلون» لقريش. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدّق ومنهم المكذب به فنزلت: ﴿عم يتساءلون﴾؟ وقيل: «عم» بمعنى: فيم يتشدّد المشركون ويختصمون.

قوله تعالى: ﴿عنِ النبإِ العظِيم﴾ أي يتساءلون «عنِ النبإِ العظِيم» فعن ليس تتعلق بـ «يتساءلون» الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون «عنِ النبإِ العظِيم» كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من ٱمتناع تعلقه بـ «يتساءلون» الذي في التلاوة، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر. وحسن ذلك لتقدم يتساءلون؛ قاله المَهْدويّ. وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام في قوله: «عن» مكرر إلا أنه مضمر، كأنه قال عم يتساءلون أعن النبإِ العظيم؟ فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى. والنبأ العظيم» أي الخبر الكبير. ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتلفون﴾ أي يخالف فيه بعضهم بعضاً، فيصدق واحد ويكذب آخر؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن؛ دليله قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عظِيم * أَنتُم عنهُ مُعْرِضُونَ﴾ فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم الشأن. وروى سعيد عن قتادة قال: هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين: مصدّق ومكذب. وقيل: أَمْر النبي ﷺ. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: وذلك أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن أشياء كثيرة، فأخبره الله جلّ ثناؤه باختلافهم، ثم هدّدهم فقال: ﴿كلا سَيَعْلمون﴾ أي سيعلمون عاقبة القرآن، أو سيعلمون البعث: أحق هو أم باطل. و «كلا» ردّ عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن، فيوقف عليها. ويجوز أن يكون بمعنى حقاً أو «ألآ» فيُبدأ بها. والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث؛ قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله عزّوجلّ: ﴿إن يوم الفصلِ كان مِيقاتاً﴾ يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث. ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ أي حقا لَيَعْلَمُنَّ[1] صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت. وقال الضحاك: «كلا

---

(١) في الأصول: ليعلمون. والفعل مؤكد بالنون الثقيلة بعد القسم.

سيعلمون» يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم. «ثم كلا سيعلمون» يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم. وقيل: بالعكس أيضاً. وقال الحسن: هو وعيد بعد وعيد. وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر؛ لقوله تعالى: ﴿يتساءلون﴾ وقوله: «هم فيه مختلِفون». وقرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما.

[٦] ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾. [٧] ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾. [٩] ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

[١٠] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾. [١١] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾.

[١٢] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾.

[١٤] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥﴾.

[١٦] ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلم نجعلِ الأرض مِهاداً﴾: دلهم على قدرته على البعث؛ أي قُدْرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة. والمِهاد: الوِطاء والفراش. وقد قال تعالى: ﴿الذِي جعلَ لكم الأرضَ فِراشاً﴾ وقُرِىء «مَهْداً». ومعناه أنها لهم كالمهد للصبيّ وهو ما يمهد له فينوّم عليه ﴿والجِبال أوتاداً﴾ أي لتسكن ولا تتكَفّأ ولا تميل بأهلها. ﴿وخَلَقْناكُمْ أزواجاً﴾ أي أصنافاً: ذكراً وأنثى. وقيل: ألواناً. وقيل: يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن، وطويل وقصير؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضل ويصبر المفضول. ﴿وجَعَلْنَا نَوْمَكُم﴾ «جعلنا» معناه صَيَّرنا؛ ولذلك تعدّت إلى مفعولين. ﴿سُباتاً﴾ المفعول الثاني، أي راحة لأبدانكم، ومنه يوم السَّبْت أي يوم الراحة؛ أي قيل لبني إسرائيل: ٱستريحوا في هذا اليوم، فلا تعملوا فيه شيئاً. وأنكر ٱبن الأنباري هذا وقال: لا يقال للراحة سُبَات. وقيل: أصله التمدّد؛ يقال: سبتت المرأة شعرها: إذا حلته وأرسلته، فالسُبَات كالمد، ورجل مسبوت الخلق: أي ممدود. وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدّد، فسميت الراحة سبتاً.

وقيل: أصله القَطْع؛ يقال: سَبَتَ شعره سَبْتاً: حَلَقه؛ وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسُّبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح. ويقال: سيَر سَبْت: أي سهل لين؛ قال الشاعر[١]:

وَمَطْوِيةِ الأقرابِ أمّا نهارُها فَسَبْتٌ وأمّا ليلُها فذَمِيلُ

﴿وجعلنا الليل لِباساً﴾ أي تلبَسكم ظلمته وتغشاكم؛ قاله الطبري. وقال ابن جُبير والسُّدي: أي سَكنا لكم. ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ فيه إضمار، أي وقتَ معاشٍ، أي مُتَصَرَّفاً لِطلب المعاش وهو كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ «معاشا» على هذا اسم زمان، ليكون الثاني هو الأول. ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف. ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شِداداً﴾ أي سبع سموات محكمات؛ أي محكمة الخلق وثيقة البنيان. ﴿وجعلنا سِراجاً وَهّاجاً﴾ أي وقّاداً وهي الشمس. وجعل هنا بمعنى خلق؛ لأنها تعدّت لمفعول واحد والوهاج الذي له وَهَج؛ يقال؛ وهَجَ يهِج وَهْجا ووَهَجاً ووَهَجَاناً. ويقال للجوهر إذا تلألأ توهّج. وقال ابن عباس: وهّاجاً منيراً متلألئاً. ﴿وأنزلنا مِن المُعْصِرات ماء ثَجّاجاً﴾ قال مجاهد وقتادة: والمعصِرات الرياح. وقاله ابن عباس. كأنها تَعْصِر السحاب. وعن ابن عباس أيضاً: أنها السحاب. وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك: أي السحائب التي تنعصِر بالماء ولما تُمْطر بعد، كالمرأة المُعْصِر التي قد دنا حيضُها ولم تحض، قال أبو النجم:

[تمشِي الهوَينَى مائلاً خِمارُها قد أَعْصَرتْ أو قد دنا إعصارها][٢]

[وقال آخر]:

فكان مِجني دون من كنت أتقِي ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبان ومُعْصِرُ[٣]

---

(١) هو حميد بن ثور، والسبت: السير السريع. والذميل: السير اللين.
(٢) هذه الزيادة عن أبي حيان، دل عليها إجماع نسخ الأصل على ذكر أبي النجم.
(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة.

وقال[1] آخر:

وذِي أُشُرٍ كالأُقحوانِ يزِينهُ ... ذِهابُ الصَّبا والمُعْصِراتُ الرَّوائِحُ

فالرياح تسمى مُعْصرات؛ يقال: أَعْصَرَت الريح تُعْصِر إعصاراً: إذا أثارت العجاج، وهي الإعصار، والسحب أيضاً تسمى المُعْصِرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضاً: المُعْصِرات السماء. النَّحّاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر مُعْصرات، والرياح تلقح السحاب، فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المُعصِرات «ماء ثَجّاجا» وأصح الأقوال أن المعصرات: السحاب. كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان (بالمُعصرات) لكان الريح أولى. وفي الصحاح: والمعصرات السحائب تُعْتَصر بالمطر. وأُعصِر القوم أي أمطِروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وفيه يُعْصِرون» والمعصِر: الجارية أوّل ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز[2]:

جارِيةٌ بسَفَوانَ دارها ... تمشِي الهُوَيْنَى ساقطاً خمارُها

قد أَعَصَرَتْ أو قد دنا إعصارُها

والجمع: مَعاصِر، ويقال: هي التي قاربت الحيض؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. سمعته من أبي الغوث الأعرابيّ. قال غيره: والمعُصر السحابة التي حان لها أن تمطر؛ يقال أجن الزرع فهو مُجنّ: أي صار إلى أن يُجِنّ، وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرِّد: يقال سحاب معصر أي ممسك للماء، ويُعْتَصر منه شيء بعد شيء، ومنه العَصَر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه، والعُصْرة بالضم أيضاً الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة «يوسف»[3] والحمد لله. وقال أبو زبيد[4]:

---

(١) هو البعيث كما في «اللسان»، وروايته للبيت:

وذي أشر كالأقحوان تشوفه ... ذهاب الصبا والمقصرات الدوالح

والدوالح السحائب التي أثقلها الماء: والذهاب بكسر الذال: الأمطار الضعيفة.

(٢) هو منصور بن مرثد الأسدي. (٣) راجع ٩/٢٠٥.

(٤) قاله في رثاء ابن أخته وكان مات عطشاً في طريق مكة.

صـادِيـاً يستغِيـثُ غيـر مُغـاثٍ ولقـدْ كـان عُصْـرة المنْجـودِ

ومنه المُعصِر للجارية التي قد قربت من البلوغ يقال لها مُعصِر؛ لأنها تُحْبَس في البيت، فيكون البيت لها عَصَراً. وفي قراءة ابن عباس وعِكرمة «وأنزلنا بِالمعصِراتِ». والذي في المصاحف «مِن المعصِراتِ» قال أبيّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان: «مِن المعصِراتِ» أي من السموات. «ماءً ثَجاجاً» صباباً متتابعاً؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. يقال: ثَجَجْت دمَه فأنا أَثُجه ثجاً، وقد ثج الدم يَثُج ثجوجاً، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعدّ. والثجاج في الآية المنصَبّ. وقال الزجاج: أي الصَّبَّاب. وهو متعدّ كأنه يثج: نفسه أي يَصُبّ. وقال عَبِيد بن الأبرص[1]:

فثَـجَّ أعـلاه ثـم ارتـجَّ أسفلُـه وضاقَ ذَرْعاً بحَمل الماءِ مُنْصاحِ

وفي حديث النبي ﷺ أنه سئل عن الحج المبرور فقال: «العَجّ والثَّجّ» فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة الدماء وذبح الهدايا. وقال ابن زيد: ثجاجاً كثيراً. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿لِنخرج بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿حبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿ونَبَاتاً﴾ من الأبّ، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش. ﴿وجناتٍ﴾ أي بساتين ﴿ألفافاً﴾ أي ملتفة بعضها ببعض لتشعّب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف. وقيل: واحد الألفاف لِفٌّ بالكسر، ولُفّ بالضم. ذكره الكسائي؛ قال:

جنـة لُـفٌّ وعيـشٌ مُغْـدِق ونَـدامَـى كلُهـمْ بِيـضٌ زُهُـرْ

وعنه أيضاً وأبي عبيدة: لفيف كشريف وأشراف. وقيل: هو جمع الجمع. حكاه الكسائي. يقال: جنة لَفّاء ونبت لِفٌّ والجمع لُفٌّ بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع اللّف ألفافاً. الزمخشري: ولو قيل جمع مُلْتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيهاً. ويقال: شجرة لَفّاء وشجر لُفّ وامرأة

(١) البيت في وصف المطر، ومنصاح: منشق بالماء. وفي الديوان: فالتج أعلاه.

(٢) قوله: والجمع لف بضم اللام راجع إلى جنة لفاء بدليل قوله: مثل حمر، لأنه جمع لحمراء، وأما لف بالكسر والفتح فجمعه ألفاف.

لفاء: أي غليظة الساق مجتمعة اللحم. وقيل: التقدير: ونخرج به جنات ألفافاً، فحذف لدلالة الكلام عليه. ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار في البساتين تكون متقاربة[1]، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها.

[١٧] ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إن يوم الفصلِ كان مِيقاتاً﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأوّلين والآخرين؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب. وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه.

قوله تعالى: ﴿يوم ينفخ فِي الصورِ﴾ أي للبعث ﴿فتأتُون﴾ أي إلى موضع العَرْض. ﴿أفواجاً﴾ أي أمماً، كل أمّة مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعات. الواحد: فوج. ونصب يوماً بدلاً من اليوم الأوّل. وروي من حديث معاذ بن جبل قلت: يا رسول الله! أرأيت قول الله تعالى: ﴿يوم ينفخ فِي الصور فتأتون أفواجاً﴾ فقال النبي ﷺ: «يا معاذ [بنَ جَبَل][2] لقد سألت عن أمر عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يُحشَر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين، وبدل صُوَرهم، فمنهم على صورة القِرَدة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم مُنَكَّسون: أرجلهم أعلاهم، ووجوهُهم يُسْحَبون عليها، وبعضهم عُمْي يتردّدون، وبعضهم صُمٌّ بُكْمٌ لا يعقلون، وبعضهم يَمضُغون ألسنتهم، فهي مُدلاَّة على صدورهم، يسيل القَيح من أفواههم لعاباً، يتقذّرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار، وبعضهم أشدّ نَتْناً من الجِيف، وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القَطران لاصقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس ـ يعني النمام ـ وأما الذين على صورة الخنازير، فأهل

---

(١) في أ، ح: متقاربة الأغصان من كل. . . الخ.

(٢) [بن جبل]: ساقطة من الأصل المطبوع.

السُّحْت والحرام والمَكْس. وأما المنكَّسون رءوسهم ووجوههم، فأكَلة الربا، والعُمْي: من يجور في الحكم، والصم البكم: الذين يعجبون بأعمالهم. والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقُصّاص الذين يخالف قولهم فعلهم. والمقطعة أيديهم وأرجلهم: فالذين يؤذون الجيران. والمصلَّبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نَتْناً من الجِيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات، ويمنعون حق الله من[1] أموالهم. والذين يلْبَسون الجلابيب: فأهل الكِبْر والفخر والخَيَلاء».

قوله تعالى: ﴿وفُتِحتِ السماء فكانت أبواباً﴾ أي لنزول الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ويوم تشقق السماء بِالغمامِ وَنُزِّلَ الملائِكة تنزِيلاً﴾. وقيل: تقطعت، فكانت قِطعاً كالأبواب فأنتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف. وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبواباً. وقيل: أبوابها طُرُقها. وقيل؛ تنحلّ وتتناثر، حتى تصير فيها أبواب. وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: باباً لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة أنفتحت الأبواب. وفي حديث الإسراء: «ثُمّ عَرج بنا إلى السماء فأستَفْتح جبريل، فقيل: من أنت قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وَقَد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا». ﴿وسيرتِ الجبال فكانت سراباً﴾ أي لا شيء كما أنَّ السراب كذلك: يظنه الرائي ماء وليس بماء. وقيل: «سُيِّرت» نسِفت من أصولها. وقيل: أُزيلت عن مواضعها.

[٢١] ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾. [٢٢] ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾. [٢٤] ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾. [٢٦] ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) وفي «الدر المنثور»: حق الله والفقراء... الخ.

قوله تعالى: ﴿إن جهنم كانت مِرصاداً﴾: مِفعال من الرَّصَد والرصَد: كل شيء كان أمامك. قال الحسن: إن على النار رَصَداً، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجيء بجواز حُبِس. وعن سُفيان رضي الله عنه قال: عليها ثلاث قَناطر. وقيل «مِرصاداً» ذات أَرْصاد على النسب، أي ترصد من يمرّ بها. وقال مقاتل: مَحْبِساً. وقيل: طريقاً وممرّاً، فلا سبيل إلى الجنة حتى يَقْطع جهنم. وفي الصّحاح: والمِرصاد: الطريق. وذكر القُشَيريّ: أن المرصاد المكان الذي يَرصُد فيه الواحد العدوّ، نحو المِضمار: الموضع الذي تُضَمَّر فيه الخيل. أي هي معدّة لهم؛ فالمِرصاد بمعنى المحلّ؛ فالملائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم. وذكر الماورديّ عن أبي سِنان[1] أنها بمعنى راصدة، تجازيهم بأفعالهم. وفي الصحاح: الراصد الشيءِ: الراقبُ له؛ تقول: رصدَه يرصدُه رَصْداً ورَصَداً، والترصُّد: الترقب. والمَرْصَد: موضع الرصْد. الأصمعيّ: رَصَدْته أرصُده: ترقبته، وأرْصدته: أعددت له. والكسائي: مثله.

قلت: فجهنم مُعَدّة مترصّدة، مُتفعِّل من الرصْد وهو الترقب: أي هي متطلعة لِمن يأتي. والمِرصاد مِفعال من أبنية المبالغة كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثر من جهنم ٱنتظار الكفار. ﴿لِلطاغِين مآباً﴾ بدل من قوله: «مِرصاداً» والمآب: المرجع، أي مرجعاً يرجعون إليها؛ يقال: آب يَئُوب أوبة: إذا رجع. وقال قتادة: مأوًى ومنزلاً. والمرادُ بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم.

قوله تعالى: ﴿ لابِثِين فِيها أحقاباً ﴾ أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حُقُب جاء حُقُب. والحُقُب بضمتين: الدهر والأحقاب الدهور. والحِقْبة بالكسر: السَّنة: والجمع حِقَب؛ قال متمم بن نُويرة التميمي:

وكنا كنَدْمانَيْ جَذِيمة حِقبةً ... مِن الدَّهرِ حتى قيل لنْ يتصدّعَا
فلما تفرّقنا كأنّي ومالِكاً ... لِطولِ ٱجتماعٍ لم نبِتْ ليلة معَا

(١) أ، ح، ل، و: «أبي سفيان».

والحُقُب بالضم والسكون: ثمانون سنة. وقيل: أكثر من ذلك وأقل، على ما يأتي، والجمع: أحقاب. والمعنى في الآية: [لابثين][1] فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه؛ إذ في الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة؛ أي أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب. ونحوه وذكر الأحقاب لأن الحُقُب كان أبعد شيء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامُهم ويعرفونها، وهي كناية عن التأبيد، أي يمكثون فيها أبداً. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود. والمعنى متقارب؛ وهذا الخلود في حق المشركين. ويمكن حمل الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب. وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغَسَّاق، فإذا ٱنقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب؛ ولهذا قال: ﴿لابِثِين فِيها أحقاباً. لا يذوقون فِيها بَرْداً ولا شَرَاباً. إلا حَمِيماً وغَسَّاقاً﴾. و «لابِثِين» ٱسم فاعل من لبِث، ويقويه أن المصدر منه اللَّبْث بالإسكان، كالشُّرْب. وقرأ حمزة والكسائي «لبِثِين» بغير ألف وهو ٱختيار أبي حاتم وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابِث ولبِث، مثل طمِع وطامِع، وفرِه وفارِه. ويقال: هو لَبِث بمكان كذا: أي قد صار اللَّبث شأنه، فشبه بما هو خلقة في الإنسان نحو حَذِر وفَرِق؛ لأن باب فَعِل إنما هو لما يكون خِلْقة في الشيء في الأغلب، وليس كذلك ٱسم الفاعل من لابث.

والحُقُب: ثمانون سنة في قول ٱبن عمر وٱبن مُحَيصن وأبي هريرة، والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا؛ قاله ٱبن عباس. وروى ٱبن عمر هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقال أبو هريرة: والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً كل يوم مثل أيام الدنيا. وعن ٱبن عمر أيضاً: الحُقُب: أربعون سنة. السُّدِّيّ: سبعون سنة. وقيل: إنه ألف شهر. رواه أبو أمامة مرفوعاً. بشير بن كعب: ثلثمائة سنة. الحسن: الأحقاب لا يَدرِي أَحَدٌ كَمْ هي، ولكن ذكروا أنها مائة حُقُب، والحُقُب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون. وعن أبي أمامة أيضاً،

---

(١) [لابثين]: ساقط من أ، ز، ل، ط.

عن النبي ﷺ: «إن الحُقُب الواحد ثلاثون ألفَ سنة» ذكره المهدويّ. والأوّل الماورديّ. وقال قُطرب: هو الدهر الطويل غير المحدود. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «والله لا يخرُج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً، الحُقُب بضع وثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً، كلّ يوم ألفُ سنة مما تَعُدُّون؛ فلا يتكلنَّ أحدكم على أنه يخرج من النار». ذكره الثعلبيّ. القُرظيّ: الأحقاب: ثلاثة وأربعون، حُقُباً كل حُقُب سبعون خَريفاً، كل خريف سبعمائةِ سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة.

قلت: هذه أقوال متعارضة، والتحديد في الآية للخلود، يحتاج إلى توقيف يقطَع العُذْر، وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ. وإنما المعنى ـ والله أعلم ـ ما ذكرناه أوّلاً؛ أي لابثين فيها أزماناً ودهوراً، كلما مضى زمن يعقبه زمن، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبد الآبدين من غير ٱنقطاع. وقال ٱبن كَيْسان: معنى «لابِثِينَ فِيها أحقاباً» لا غاية لها ٱنتهاء، فكأنه قال أبداً. وقال ٱبن زيد ومُقاتل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزِيدكم إلا عذاباً﴾ يعني أن العدد قد ٱنقطع، والخلود قد حصل.

قلت: وهذا بعيد؛ لأنه خبر، وقد قال تعالى: ﴿ولا يدْخُلُون الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجملُ فِي سَمِّ الخِياطِ﴾ على ما تقدم[1]. هذا في حق الكفار، فأما العُصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص. والله أعلم. وقيل: المعنى ﴿لابِثِين فِيها أحقاباً﴾ أي في الأرض؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في ﴿لا يذوقون فِيها برداً ولا شراباً﴾ لجهنم. وقيل: واحد الأحقاب حُقُب وحِقْبَةٌ؛ قال:

فإنْ تَنأَ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِهَا ... فأَنتَ بِما أَحْدَثْتَهُ بِالمُجَرَّبِ

وقال الكميت[2]:

مَرّ لها بعد حِقبةٍ حِقَبُ

(١) راجع ٧/٢٠٦.
(٢) صدر البيت:

ولا حمول غدت ولا دمن

قوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيها﴾ أي في الأحقاب ﴿بَرْداً ولا شَرَاباً﴾ البرد: النوم في قول أبي عبيدة وغيره؛ قال الشاعر[١]:

ولو شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سِواكُمُ وإن شِئت لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدَا

وقاله مجاهد والسُّدّيّ والكسائيّ والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي؛ وأنشدوا قول الكنديّ:

بَرَدت مَراشفُها عليَّ فصدني عنها وعن تقبيلِها البَرْد

يعني النوم. والعرب تقول: مَنع البَرْدُ البَرْد، يعني: أذهب البرد النوم.

قلت: وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سُئل هل في الجنة نوم. فقال: «لا؛ النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها» فكذلك النار؛ وقد قال تعالى: ﴿لا يُقْضَى عليهِم فيموتوا﴾ وقال ابن عباس: البَرْدُ: برد الشراب. وعنه أيضاً: البرد النوم: والشراب الماء. وقال الزّجاج: أي لا يذوقون فيها برد ريح، ولا ظِل، ولا نوم. فجعل البرد برد كل شيء له راحة، وهذا برد ينفعهم، فأما الزمهرير فهو برد يتأذَّون به، فلا ينفعهم، فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به. وقال الحسن وعطاء وابن زيد: بَرْداً: أي رَوْحاً وراحة؛ قال الشاعر[٢]:

فلا الظلَّ مِن بردِ الضحى تستطيعُه ولا الفَيْءَ أوقات[٣] العَشِيّ تذوقُ

﴿لا يذوقون فِيها برداً ولا شراباً﴾ جملة في موضع الحال من الطاغين، أو نعت للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان، والعامل فيه «لابِثِين» أو «لبِثِين» على تعدية فِعل. ﴿إلا حمِيماً وغساقاً﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه. والحميم: الماء الحار؛ قاله أبو عبيدة. وقال ابن زيد: الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يُسْقَونه. قال النحاس: أصل الحميم: الماء الحار، ومنه اشتق الحَمّام، ومنه الحُمَّى، ومنه ﴿وظِلٌ مِن

---

(١) هو العرجي: عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان. ونسب إلى العرج، وهو موضع قبل الطائف كان ينزل به. والنقاخ كغراب: الماء الطيب.

(٢) قائله حميد بن ثور يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة.

(٣) كذا في الأصل. وفي كتب اللغة مادة «فيأ» ولا الفيء من برد العشي.. الخ.

يَحموم﴾: إنما يراد به النهاية في الحر. والغَسّاق: صديد أهل النار وقَيْحُهم. وقيل الزَّمْهَرير. وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين، وقد مضى في «ص»[1] القول فيه. ﴿جزاءاً وِفاقاً﴾ أي موافقاً لأعمالهم. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما؛ فالوِفاق بمعنى الموافقة كالقِتال بمعنى المقاتلة. و «جزاء» نصب على المصدر، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم؛ قاله الفَرّاء والأخفش. وقال الفراء أيضاً: هو جمع الوِفق، والوفق واللفق واحد. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوءهم. ﴿إنهم كانوا لا يرجُون﴾ أي لا يخافون ﴿حِساباً﴾ أي محاسبة على أعمالهم. وقيل: معناه لا يرجون ثواب حساب. الزجاج: أي إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم. ﴿وكَذَّبوا بِآياتِنا كِذَّاباً﴾ أي بما جاءت به الأنبياء. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. وقراءة العامة «كِذّاباً» بتشديد الذال، وكسر الكاف، على كَذَّب، أي كَذَّبوا تكذيباً كبيراً. قال الفراء: هي لغة يمَانِيَة فسيحة؛ يقولون: كَذَّبت [به][2] كِذَّاباً، وخرقت القميص خِرَّاقاً؛ وكل فِعل في وزن (فَعَّلَ) فمصدره فِعَّال مشدد في لغتهم؛ وأنشد بعض الكلابيين:

لقد طالَ ما ثَبَّطتني عن صحابتي وعن حِوجٍ قِضَّاؤُها مِن شِفائِنا

وقرأ علي رضي الله عنه «كِذَاباً» بالتخفيف وهو مصدر أيضاً. وقال أبو عليّ: التخفيف والتشديد جميعاً: مصدر المكاذبة، كقول الأعشى:

فصدقتها وكَذَبتُها[3] والمـرءُ ينفعـهُ كِـذَابـه

أبو الفتح: جاءا جميعاً مصدر كَذَبَ وكَذَّب جميعاً. الزمخشري: «كِذَابا» بالتخفيف مصدر كَذَب؛ بدليل قوله:

فصدقتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعهُ كِذَابهْ

---

(١) راجع ٢٢١/١٥ فما بعدها. (٢) الزيادة من معاني القرآن للفراء.

(٣) قال الشهاب: وضمير صدقتها وكذبتها للنفس. والمراد: أنه يصدق نفسه: تارة، بأن يقول إن أمانيها محققة، وتكذيبها بخلافه، أو على العكس.

وهو مثل قوله: ﴿أنبتكُم من الأرضِ نَباتاً﴾ يعني وكذبوا بآياتنا أفكذَبوا كِذَاباً. أو تنصِبه بـ «ـكَذَّبوا»، لأنه يتضمن معنى كَذَبوا؛ لأن كل مُكَذِّب بالحقّ كاذِب؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مُكاذبة. وقرأ ابن عمر «كُذَّاباً» بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قاله أبو حاتم. ونصبه على الحال الزمخشريّ. وقد يكون الكُذَّاب: بمعنى الواحد البليغ في الكَذِب، يقال: رجل كُذّاب، كقولك حُسَان وبُخَّال، فيجعله صفة لمصدر «كَذَّبوا» أي تكذيباً كُذَّاباً مفرطاً كذبهُ. وفي الصحاح: وقوله تعالى: ﴿وكذبوا بِآياتنا كِذاباً﴾ وهو أحد مصادر المشدّد؛ لأن مصدره قد يجيء على (تفعيل) مثل التكليم وعلى (فِعَّال) كِذَّابٍ وعلى (تفعِلة) مثل توصِية، وعلى (مُفَعَّلٍ)؛ ﴿ومَزَّقْناهم كلَّ مُمَزَّقٍ﴾. ﴿وكلَّ شيءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً﴾ «كلَّ» نصب بإضمار فعل يدل عليه «أحصيناه» أي وأحصينا كل شيء أحصيناه. وقرأ أبو السَّمَّال «وكلُّ شيءٍ» بالرفع على الابتداء. «كِتاباً» نصب على المصدر؛ لأن معنى أحصينا: كتبنا، أي كتبناه كتاباً. ثم قيل: أراد به العلم، فإن ما كُتِب كان أبعد من النسيان. وقيل: أي كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة. وقيل: أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم. فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكَّلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وإنَّ عليكُمْ لحافِظِينَ * كراماً كاتِبِينَ﴾. ﴿فذُوقوا فلنْ نَزِيدكُمْ إلاَّ عَذَاباً﴾ قال أبو بَرْزة: سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن؟ فقال: «قوله تعالى: ﴿فذُوقوا فلنْ نزِيدَكم إلاّ عذاباً﴾» أي «كلما نضِجَتْ جُلودُهمْ بَدَّلناهم جلوداً غيرَها» و ﴿كلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً﴾.

[٣١] ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنّ لِلمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾ ذَكَر جزاء من اتقى مخالفة أمر الله «مَفازاً» موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار. ولذلك قيل للفُلاة إذا قل ماؤها: مفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها. ﴿حدائقَ وأعناباً﴾ هذا تفسير الفوز. وقيل: ﴿إِنّ للمتَّقِين مَفازاً﴾ إن للمتقين حدائقَ؛ جمع حديقة، وهي البستان المُحَوَّط عليه؛ يقال أحدق به: أي أحاط. والأعناب: جمع عنب، أي كروم أعناب، فحذف. ﴿وكواعِبَ أتْراباً﴾ كواعِب: جمع كاعِب وهي الناهد: يقال: كَعَبَت الجارية تَكْعَب كُعوباً، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعِيباً، ونَهَدت تَنْهَد نهُوداً. وقال الضحاك: ككواعب العَذَارَى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وكمْ مِن حَصانٍ قد حَوَينا كريمةٍ ... ومِن كاعِبٍ لم تدرِ ما البؤسُ مُعْصِرِ

والأتراب: الأقران في السنّ. وقد مضى في سُورة «الواقعة»[1] الواحد: ترب. ﴿وكَأْساً دِهاقاً﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس: مُتْرعة مملوءة؛ يقال: أدهقت الكأس: أي ملأتها، وكأس دِهاق أي ممتلِئة؛ قال:

ألا فاسقِنِي صِرْفاً سقانِي الساقِي ... مِـن مـائِهـا بِكـأسك الـدِّهـاقِ

وقال خِدَاش بن زُهَير:

أتـانـا عـامِـرٌ يبغِـي قِـرانَـا ... فـأَتْـرعْنـا لـه كـأسـاً دِهـاقَـا

وقال سعيد بن جُبير وعِكرمة ومجاهد وابن عباس أيضاً: متابعة، يَتبع بعضُها بعضاً؛ ومنه ادَّهقَتِ الحِجارة ادِّهاقاً، وهو شدّة تلازُبها ودخول بعضها في بعض؛ فالمتتابع كالمتداخل. وعن عِكرمة أيضاً وزيد بن أسلَم: صافية؛ قال الشاعر:

لأَنـتِ إِلـى الفـؤادِ أحـبُّ قـرباً ... مِن الصادِي إلى كأسٍ دِهاقِ

وهوجمع دَهَقَ[2]، وهو خشبتان [يغمز][3] بهما[الساق]. والمراد بالكأس الخمر، فالتقدير: خمراً ذات دهاق، أي عُصِرت وصُفِّيت؛ قاله القشيريّ. وفي الصحاح: وأَدْهَقْت الماء: أي أفرغته

(١) راجع ١٧/٢١١.
(٢) في («اللسان»: دهق): والدهق (بالتحريك): ضرب من العذاب. وهو بالفارسية: (أشكنجة). ودهقت الشيء: كسرته وقطعته. ا هـ.
(٣) التصحيح من كتب اللغة وفي الأصول: خشبتان يعصر بهما.

إفراغاً شديداً: قال أبو عمرو: والدَّهَق ـ بالتحريك: ضرب من العذاب. وهو بالفارسية أَشْكَنْجَهْ. المبرد: والمدهوق: المعذَّب بجميع العذاب الذي لا فُرجة فيه. ابن الأعرابي: دَهَقْت الشيء كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقْته: وأنشد لحُجْر بن خالد:

نُدَهْدِق بَضْعَ اللحم للباعِ والندَى وبعضهُمُ تغلى بذمٍّ مَناقِعُهْ[1]

ودَهْمَقته بزيادة الميم : مثله . وقال الأصمعي: الدهمقة: لِين الطعام وطِيبهُ ورِقته ، وكذلك كل شيء لينٌ ؛ ومنه حديث عمر: لو شئت أن يُدهْمَقَ لي لفعلت ، ولكن الله عاب قوماً فقال : ﴿ أذهبتم طيباتِكم في حَياتِكُمُ الدنيا وٱستمتعْتمْ بِها﴾ .

قوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعون فِيها﴾ أي في الجنة ﴿لَغْواً ولا كِذاباً﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرَح؛ ومنه الحديث: «إذا قلت لصاحبك أنصِت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لَغَوْت» وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو؛ بخلاف أهل الدنيا. «ولا كِذّاباً»: تقدم، أي لا يُكَذِّب بعضهم بعضاً. ولا يسمعون كذباً. وقرأ الكسائي «كِذَاباً» بالتخفيف من كَذَبْت كِذَاباً أي لا يتكاذَبُون في الجنة. وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنّما خففها ها هنا لأنها ليست مقيَّدة بفعلٍ يصير مصدراً له، وشدّد قوله: ﴿وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً﴾ لأن كذبوا يقيد المصدر بالكذَّاب. ﴿جزاءً مِن رَبِّكَ﴾ نصب على المصدر. لأن المعنى جزاهم بما تقدّم ذكرُه، جزَاءَه وكذلك ﴿عطاء﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي أعطاهم عطاء. ﴿حِساباً﴾ أي كثيراً؛ قاله قتادة؛ يقال: أَحْسَبْت فلاناً: أي كَثَّرت له العطاء حتى قاله حَسْبِي. قال[2]:

ونُقْفِي ولِيدَ الحيِّ إن كان جائِعاً ونُحْسِـ ـبُـهُ إن كـانَ ليـس بِجـائِـعِ

---

(١) يروى هكذا في «اللسان» مادة «دهق». وفي الأصول «مراجله». والمناقع: القدور الصغار، واحدها: منقع ومنقعة.

(٢) قائلته أمرأة من بني قشير. ونقفيه: أي نؤثره بالقفية؛ وهي ما يؤثر به الضيف والصبي.

وقال القُتَبِيّ: ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حَسْبِي. وقال الزجاج: «حِساباً» أي ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أَحسبني كذا: أي كَفاني. وقال الكلبيّ: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشراً. مجاهد: حساباً لما عملوا، فالحساب بمعنى العدّ. أي بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم بسبعمائة ضِعْف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مِقدار؛ كما قال تعالى: ﴿إنما يوفَّى الصابِرون أجرهم بِغيرِ حِسابٍ﴾ وقرأ أبو هاشم «عَطاء حَسَّابا» بفتح الحاء، وتشديد السين، على وزن فَعَّال أي كَفافاً؛ قال الأصمعيّ: تقول العرب: حَسَّبْت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته؛ وأنشد قول الشاعر:

إذا أتاهُ ضيفُه يُحسِّبْه

وقرأ ٱبن عباس «حسانا»[1] بالنون.

[٣٧] ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾.

[٣٨] ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾.

[٣٩] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩﴾.

[٤٠] ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما الرحمن﴾: قرأ ٱبن مسعود ونافع وأبو عمرو وٱبن كثير وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم: «رَبُّ» بالرفع على الاستئناف، «الرحمنُ» خبره. أو بمعنى: هو رب السموات، ويكون «الرحمن» مبتدأ ثانياً. وقرأ ٱبن عامر ويعقوب وٱبن محيصن كلاهما بالخفض، نعتاً لقوله: ﴿جزاءً مِن رَبِّكَ﴾ أي جزاء من ربك رب السموات الرحمنِ. وقرأ ٱبن عباس وعاصم وحمزة والكسائي: «رَبِّ السموات

(١) هكذا رسم الشوكاني الكلمة في تفسيره، «فتح القدير» (٥/٢٥٨) ولم يضبطها.

خفضاً على النعت. «الرحمن»[1] رفعا على الابتداء، أي هو الرحمن. وٱختاره أبو عُبيد وقال: هذا أعدلُها؛ خفض «رَبِّ» لقربه من قوله: «مِن رَبِّك» فيكون نعتاً له، ورفع «الرحمن» لبعده منه، على الاستئناف، وخبرُه ﴿لا يملِكون مِنه خِطاباً﴾ أي لا يملكون أن يسألوه إلاّ فيما أَذِن لهم فيه. وقال الكسائي: «لا يملِكون مِنه خِطاباً» بالشفاعة إلا بإذنه. وقيل: الخطاب: الكلام؛ أي لا يملكون أن يخاطبوا الربَّ سبحانه إلا بإذْنه؛ دليله: ﴿لا تَكَلَّم نفس إلا بإذْنِهِ﴾. وقيل: أراد الكفار ﴿لا يملِكُون منه خِطاباً﴾، فأمّا المؤمنون فيَشْفَعُون.

قلت: بعد أن يُؤْذن لهم؛ لقوله تعالى: ﴿من ذَا الذِي يَشْفع عِنده إلا بِإذنِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يومئَذٍ لا تنفع الشفاعة إِلا من أَذِنَ له الرحمن ورضِي له قولاً﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوم يقومُ الرُّوحُ والملائِكة صَفًّا﴾ «يومَ» نصب على الظرف؛ أي يوم لا يملِكون منه خطاباً يومَ يقوم الروح. وٱختلف في الروح على أقوال ثمانية: **الأوّل** ـ أنه مَلَك من الملائكة. قال ٱبن عباس: ما خلق الله مخلوقاً بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفّاً، وقامت الملائكة كلهم صفّاً، فيكون عِظَمُ خَلْقه مثل صفوفهم. ونحو منه عن ٱبن مسعود؛ قال: الروح ملك أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال. وهو حِيال السماء الرابعة[2]؛ يسبحُ اللَّهَ كل يوم ٱثنتي عشرة أَلَف تسبيحة؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً، فيجيء يوم القيامة وحده صفّاً، وسائر الملائكة صفاً. **الثاني** ـ أنه جبريل عليه السلام. قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير. وعن ٱبن عباس: إن عن يمين العرش نَهْراً من نور، مثلَ السموات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يَدْخل جبريل كل يوم فيه سحراً فيغتسل، فيزداد نوراً على نوره، وجمالاً على جماله، وعظماً على عظمه، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة

(١) هذه القراءة ذكرها القرطبي وٱبن عطية ولم يذكرا قراءة عاصم بالجر فيهما وهي رواية حفص، وقد ذكرها أبو حيان والألوسي، فتكون القراءات عن عاصم على هذا ثلاثاً؛ رفع فيهما، وجر فيهما، وجر «رب» ورفع «الرحمن».

(٢) في نسخة: السماء السابعة.

تقع من ريشه سبعين ألفَ مَلَك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً البيت المعمور، والكعبة سبعون ألفاً لا يعودُون إليهما إلى يوم القيامة. وقال وهب: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى تَرعَّدَ فرائصُه؛ يخلق الله تعالى من كل رعدة مائة ألف ملَكَ، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكسة رءوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت؛ وهو قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائِكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذِن له الرحمن﴾ في الكلام ﴿وقال صواباً﴾ يعني قول: «لا إله إلا أنت». **والثالث** ـ روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الرُّوح في هذه الآية جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكة، لهم رُءوس وأيد وأرجل، يأكلون الطعام». ثم قرأ ﴿يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صَفًّا﴾، فإن هؤلاء جُند، وهؤلاء جُند. وهذا قول أبي صالح ومجاهد. وعلى هذا هم خَلْق على صورة بني آدم، كالناس وليسوا بناس. **الرابع** ـ أنهم أشراف الملائكة؛ قاله مقاتل بن حَيّان. **الخامس** ـ أنهم حَفَظَة على الملائكة؛ قاله ابن أبي نجيح. **السادس** ـ أنهم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. فالمعنى ذوو الروح. وقال العَوفي والقُرَظيّ: هذا مما كان يكتمه ابن عباس؛ قال: الرُّوح: خلق من خلق الله على صور بني آدم، وما نَزَلَ مَلَك من السماء إلا ومعه واحد من الرُّوح. **السابع** ـ أرواح بني آدم تقوم صَفًّا، فتقوم الملائكة صفاً، وذلك بين النفختين، قبل أن تردّ إلى الأجساد؛ قاله عَطية. **الثامن** ـ أنه القرآن؛ قاله زيد بن أسلم، وقرأ ﴿وكذلك أوحَيْنا إليك رُوحاً مِن أمرِنا﴾. و «صفًّا»: مصدر أي يقومون صُفوفاً. والمصدر ينبىء عن الواحد والجمع. كالعدل والصوم. ويقال ليوم العيد: يوم الصف. وقال في موضع آخر: «وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً» هذا يدل على الصفوف، وهذا حينَ العرض والحساب. قال معناه القُتَبيُّ وغيره. وقيل: يقوم الروح صفاً، والملائكة صفاً، فهم صفان. وقيل: يقوم الكل صفاً واحداً. ﴿لا يتكلمون﴾ أي لا يشفَعون ﴿إلا من أذِن له الرحمن﴾ في الشفاعة ﴿وقال صواباً﴾ يعني حقًّا؛ قاله الضحاك ومجاهد. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يَشفعون لمن قال لا إله إلا الله.

وأصل الصواب: السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة. وقيل: «لا يتكلمون» يعني الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفاً، لا يتكلمون هيبة وإجلالاً «إلا من أذِن له الرحمنُ» في الشفاعة وهم قد قالوا صواباً، وأنهم يوحِّدون الله تعالى ويسبحونه. وقال الحسن: إن الرُّوح يقول يوم القيامة: لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وقال صواباً﴾.

قوله تعالى: ﴿ذلِك اليومُ الحقُّ﴾ أي الكائن الواقع ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربهِ مآباً﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح؛ كأنه إذا عمل خيراً ردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإذا عمل شراً عده منه. ويَنْظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «والخير كله بيديك، والشر ليس إليك». وقال قتادة: «مآباً»: سبيلاً.

قوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قرِيباً﴾: يخاطب كفار قريش ومشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نبعث. والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آتٍ فهو قريب، وقد قال تعالى: ﴿كأنهم يومَ يَرونَها لم يلبَثُوا إلا عشِيةً أو ضُحاها﴾ قال معناه الكلبي وغيره. وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين. قال مقاتل: هي قتلُ قريش ببدْر. والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مَقعدَه من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخِزْي والهوان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يوم ينظرُالمرء ما قدّمتْ يداهُ﴾ [بيَّن وقت ذلك العذاب؛ أي أنذرناكم عذاباً قريباً في ذلك اليوم، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، أي يراه][(١)]، وقيل: ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى. والمرء ها هنا المؤمن في قول الحسن؛ أي يجد لنفسه عملاً، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تراباً. ولما قال: ﴿ويقول الكافِر﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن. وقيل: المرء ها هنا: أبيّ بن خلف وعُقْبة بن أبي مُعَيط. «ويقول الكافِر» أبو جهل. وقيل: هو عام في كل أحد وإنسان يَرَى في ذلك اليوم جزاء ما كَسَب. وقال مُقاتل: نزل قوله: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ في أبي سَلَمة بن عبد الأسَد المخزوميّ ﴿ويقول الكافِر يا ليتَنِي كنت

(١) ما بين القوسين: ساقط من ز، ط، ل.

ترابًا﴾: في أخيه الأسود بن عبد الأسد. وقال الثعلبيّ: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافر: ها هنا إبليس، وذلك أنه عاب آدم بأنه خُلِق من تراب، وافتخر بأنه خُلق من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنى أنه يكون بمكان آدم، فـ ﴿يقول يا ليتني كنت ترابًا﴾ قال: ورأيته في بعض التفاسير للقُشَيري أبي نصر. وقيل: أي يقول إبليس يا ليتني خُلِقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم. وعن ابن عمر: إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرض مَدَّ الأَدِيم، وحُشِر الدوابُّ والبهائم والوحوش، ثم يوضعُ القِصاص بين البهائم، حتى يُقْتَص للشاة الجمَّاء من الشاة القَرْناء بنطحتها، فإذا فرغ من القِصاص بينها قيل لها: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتنِي كنتُ ترابًا﴾. ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، مجودًا والحمد لله. ذكر أبو جعفر النّحاس: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال حدثنا سَلَمة بن شبيب، قال حدثنا عبد الرازق، قال حدثنا مَعْمر، قال أخبرني جعفر بن بَرْقان الجَزَرِيّ، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، قال: إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير كوني ترابًا، فعند ذلك ﴿يقول الكافر: يا ليتني كنتُ تُرابًا﴾. وقال قوم: ﴿يا ليتنِي كنت ترابًا﴾: أي لم أبعث، كما قال: ﴿يا ليتنِي لم أُوْتَ كِتابِيه﴾. وقال أبو الزّناد: إذا قُضِي بين الناس، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهلِ النار إلى النار، قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجنّ: عودُوا ترابًا، فيعودون ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم ﴿يا ليتنِي كنت ترابًا﴾. وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجنّ يعودون ترابًا. وقال عمر بن عبد العزيز والزهريّ والكلبيّ ومجاهد: مؤمنو الجِنةِ حول الجنة في رَبَضٍ ورِحاب وليسوا فيها. وهذا أصح، وقد مضى في سورة «الرحمن»[1] بيان هذا، وأنهم مكلَّفون: يُثابون ويعاقبون، فهم كبني آدم، والله أعلم بالصواب.

(١) راجع ١٧/١٦٩.